يَومَ سَقطَتْ العَصَافِير

obeikan.com

obeikan.com

يَومَ سَقطَتْ العَصَافِير

رواية

سارة شمس الدين

للنشر والتوزيع

obeikan.com

obeikan.com

ماما..

يا أحلى من أحلى حاجة في الدنيا، يا أدفى من الدفا!

شكرًا على وجودك جنبي، شكرًا علشان انتي السبب إني "سارة".

obeikan.com

obeikan.com

لولا الناس دي وتشجعيهم مكنتش هتبقى الرواية بين إيديك دلوقتي

إخواتي الحلوين:

رضوى ومصطفى وسلمى

صحابي الجدعين جدًّا:

الكاتب أ.شريف عبد الهادي

وليد عبد المنعم

أحمد خالد

جيهان محسن

هبة مجدي

obeikan.com

obeikan.com

إهداء إلى:

فتاة أضاعت روحها في مكانٍ ما، وشاب حَسِب أن حلمه في الرحيل!

فالأرض يحدث أن تنادينا وتشتاق إلينا واشتياقها لنا سيوجعنا كثيرًا..

فلا تعود حياتنا الحلُوة حُلوة إلا بين جدران آلفناها وولدنا بين أحضانها

إلا في "الوطن" !

سـارّة

obeikan.com

obeikan.com

الفصل الأول

حتى تلك النجمة هناك ارتدت ثوبًا بلون الليلك وتزينت بحُلى جعلها تشعّ أكثر، رسمت أحلى ابتسامة امتلكتها شفتاها يومًا، ومشت بثقة نحو القمر ليكون أول مَن تخبره أن العام الجديد قادمٌ خلال ساعات، فليجعلها أمنيته هذا العام!. العزيز نويل على وشك المجيء فلتقنعه أن يخبّئها في أحد جوارب العيد الحمراء، وليتركها بجوار المدفأة لعلها تحظى بالدفء أو لعلها تحظى بالحب.

فتلك النجمة سئمت الوحدة مثلي!

"أيها العزيز نويل..

أسمعك تضحك ضحكتك الصاخبة التي يعلق صداها في لحيتك البيضاء الكثيفة: "- هوه هوه هوه – «مشاعر» ألن تكفّي عن إرسال الخطابات ؟"

أصارحك القول، إن هذه العادة السخيفة لم تستطع الافتراق عني، أصبحت مثل أجراس العيد؛ شيء أساسي.

رغم عدم اقتناعي بوجودك المادي – آسفة لجرح شعورك – إلا أن بداخلي طفلة تنتظرك كل ليلة عيد!

لعلك الآن في مكان ما في القطب الشمالي ترتدي بذلتك الحمراء وتطلي أساور الأكمام بكرات الثلج البيضاء، الأقزام يركضون من هنا لهناك

يضعون أمنيات العيد وهدايا العديد على عربتك السحرية التي تجرّها (آيل) تضع حول رقبتها جرسًا كل خطوتين يرن:" رن. . رن "

تقبَّل وجنتي السيدة كلوز وترحل!

أتعلم لماذا نسعد هكذا بالعام الجديد رغم أن شيئًا لم يتغير، فوظيفتي مازالت هي، شعري البني لم يطل سنتيمترًا أكثر عن العام الماضي..

لأننا يا عزيزي نظن أننا نفتح صفحة جديدة مع الحياة، لهذا يتجمع العديد في الطرقات يصيحون فرحًا أو ربما فزعًا، يرتدون ثيابًا جديدة، يطلون وجوههم ببعض المساحيق المبهجة وبداخلهم يتردد:

- عام جديد فلأنسى أنني قتلته !
- عام جديد سأتبع حمية عذائية !
- عام جديد لن أخونها مجددًا !
- عام جديد سأسامحه !

ونضحك بأصوات جديدة على أحبالنا الصوتية حتى إنها في بعض الأحيان تجرح – يا بابا نويل – تُدمي !

آه من ليلة العيد!

كنت أتمنى أن أسألك، هل سألت أحدهم ماذا تتمنى وقال لا شيء!

أشعر أنني هذا الشخص، ومن تأتيه فرصة التمني ولا يتمنى إما أنه يملك كل شيء أو لا شيء !، ببساطة إذا لم تكن تمتلك شيئًا وسألتك إن تمنيت ماذا ستقول؟

إذا أجبت "حب" ستخسر أمنية المال، وإذا أجبت "مال" ستخسر أمنية الحب، أما إذا أجبت "جمال" فربما خسرت أمنية المال وربحت أمنية الحب !

فلسفة عقيمة هي فلسفة التمنّي وانتظار تحقيق الأمنيات، دعك من أنك يا سيد نويل لا تأتي أبدًا!

لماذا أكتب إليك إذًا ؟، كما قلت لك من قبل إنها طقوس العيد ولا يجوز خرقها أبدًا، إلا أنني سأكون حسنة الظن هذا العام تاركة لك نافذة البيت مفتوحة ربما تركت لي هديتي في غلاف أحمر ينبض بالحياة !"

«مشاعر»

2011

"خطاب لم أرسله قَط إلى السيد نويل لعدم معرفتي بعنوان السماء !"

* * *

وضعت رسالتي في الكومود الذي يحوي رسائلي الكثيرة جدًّا إلى بابا نويل، استلقيت على سريري في ملل وأنا أفكر فيما كتبت.

لم يأتِ أبدًا عيد ولم أتمنَ شيئًا – يا لحماقتي – كان من الممكن أن أتمنى حتى أن أصحو كل يوم لأجد بضعة "يوروهات" تحت وسادتي كما قرأت في قصة ما للأطفال !

ببساطة..

لقد كبرت، لم أعد تلك الفتاة بضفيرتين والنظرة البريئة التي لم تتلوث بعد !

أتذكر أنني كتبت رسالة لنويل وأنا في الخامسة من عمري أثناء جلوسي أمام البيت ألعب في الطين، كنت وقتها أبكي وخطيت بأنامل مرتجفة رسالة طويلة شكوت فيها من سوء معاملة زوجة خالي لي، وكانت النتيجة أن رسالتي كانت عبارة عن"دموع، خبر سائل، طين وشكوى !"

تمنيت وأنا في السادسة دراجة وردية اللون، تكون بسنادتين خفيتين لا تراهما سوى عينيَّ حتى لا أكون أضحوكة بين أصدقائي.

وبالغت وأنا في الثانية عشر متمنية أن يصبح "صَدري" أكبر وبعد عام استدار كبرتقالة التصقت كثيرًا بغصن شجرة وحان وقت قطفها، وأصبحت أخجل منه كثيرًا، حتى إنني أثناء كتابتي لرسالة العام الجديد تمنيت أن اعود صغيرة بضفيرتين ومواد دراسية أسهل والأهم أن يعود "صَدري" صغيرًا كما كان !

ناهيك عن أمنيات كثيرة منها، أن أصحو لأجد أنني أصبحت عصفورة صفراء في لون الشمس، وأن يقع في حبي معلم اللغة الإيطالية الوسيم !

الكثير والكثير من الأمنيات الساذجة.

أعادني جرس المنبه إلى الواقع، لقد أصحبت الساعة السابعة صباحًا، ارتديت في عجلة ملابسي، أخذت حقيبتي، مفاتيح البيت، هاتفي وأغلقت الأنوار.

علقت مريولي الأبيض على يدي ونزلت أتهادى على درجات السلم مدندنة وأخيرًا ركبت دراجتي بعدما حررتها من قفل كاد يخنقها وبدأت أولى خطواتي ليومٍ جديدٍ في العمل.

الجو إلى حدٍّ ما بارد والشمس ساطعة فقط في قلوب من يتغزلون ببعضهم البعض، إنها ليلة رأس السنة، إن كنت لا تلاحظ كل تلك البيوت التي تزينت وشوارع "فينيسيا" التي امتلأت بالضحكات !

إيطاليا..

في ليلة العيد تختلف كثيرًا في احتفالاتها عن أي دولة أخرى، فنحن - واسمحلي أن أعد نفسي من الشعب الإيطالي بعد كل تلك السنوات التي عشتها هنا- فالاهتمام بالطعام شيء مقدس، وكان من عادتنا أن تشتمل مائدة رأس السنة على أطباق العدس لأننا نعتقد أن العدس يجلب الرخاء المادي وعادات كثيرة أغلبها اختفى لم يعد له وجود؛ كإلقاء الأثاث البالي من النوافذ للتخلص من مشاكل العام الماضي؛ لأن هذا يتسبب في جرح العديد من المارة، أما أجمل عادات رأس السنة أن تستمر الاحتفالات حتى مطلع الفجر فتشهد ميلاد أول شمس في السنة الجديدة، الجميل بالنسبة لي لم يكن الشاعرية في الموضوع إنما تلك العادة التي تتيح لي فرصة الانتهاء من عملي، الاسترخاء ثم الاستعداد لاحتفالات رأس السنة !

تنبهت إلى الطريق، معظم البيوت في تلك المنطقة بيضاء، بوابات حديدية وأصص زرع أخضر نما بداخلها وردٌ صغيرٌ جدًّا، ورد وردي اللون نسى

لوهلة أن يكبرا!، شرفات البيوت ضيقة لتجبرك على النزول إلى الشارع لتستمتع بجمال مدينة العشاق "فينيسيا".

وصلت أخيرًا، ركنت دراجتي إلى ذلك الركن تحت لافتة كُتِبَ عليها: "مدرسة اكوالينا لتعليم الطبخ ".

ورُسِمَت بجوارها باذنجانة كبيرة وطماطم يتساقط منها الماء، حتى إنك لَترى اللافتة وتنتعش !

صعدت بثقة إلى فصل الطبخ الخاص بالصغار، وجدتهم كالعادة يتراشقون بالليمون، مَن يحاول وضع يد صديقه في الخلاط، ومن تدهن وجهها بالزبد ظنًا منها أنه سيصبح أنعم !

لم تعد تلك التصرفات تغضبني، بالعكس أصبحت مصدر لابتسامة غابت كثيرًا عنّي !

تنحنحت:

- إحم، إحم..

فلم يعيروني أدنى انتباه، فصحت:

- Buon giorno (1)، اتركوا ما بأيديكم ولنبدأ المرح.

ضحكوا كثيرًا وكأني ألقيت طُرفة، ثم التفّوا حولي في صمتٍ وأعينهم يملؤها الفضول والشغف، أذكر أنني كنت مثلهم يومًا ما.

أول يوم دخلت فيه " أكوالينا " بعدما تنبّه خالي بوجود طباخة صغيرة بداخلي، وكان يخشى كثيرًا أن أتحول لراقصة أو ربما أغيِّر ديانتي؛ فوجد

في الطبخ أسلم الاتجاهات لي ومرارًا نصحني: "إياك واستخدام النبيذ، كل من سيتذوقه سيضيف لصحيفتك السيئات، تخيلي أن تقفي أمام ربك بصحيفة مليئة بالسيئات!"

لذلك أنا لا أستخدم النبيذ أبدًا، مطبخي وحمدًا لله خالي منه.

كنت أشتم كل مكون قبل إعداد الوجبة، كل رائحة تأخذني إلى مكان جميل تدغدغ روحي، أما التوابل فكانت تسبب لي العطاس، الأهم من كل ذلك كان "الدفء" الذي أحظى به وأنا أطبخ، جميل أن تنعم بالدفء وألا تزرقّ أطراف مشاعرك من البرد طوال اليوم حتى وإن كان مصدر هذا الدفء هو موقد!

واصلت الذهاب لمدرسة الطبخ في إجازات مدرستي وفي كل عام كنت أرى نفسي بالمريول أجمل من أجمل فتاة ترتدي الفستان الأبيض !

- إنه الشغف يا صغيرتي..

قالتها لي مديرة المدرسة بعد أعوام طويلة من التعلم في مطبخها، وعندما أنهيت دراستي المدرسية، طلبَتْ منّي العمل كطباخة لصغار السن في "اكواليننا" متعللة بأنها لم ترَ شغفًا كهذا في عينيْ فتاة، عينان لا تلمعان إلا لرؤية وصفات قديمة! وأن أصولي الشرقية ستضيف كثيرًا للمدرسة، إلا أن خالي رفضَ، وأصر أن ألتحق بكلية الحقوق لأعرف حقوقي؛ لأننا في بلدٍ غريبٍ عنا وجب معرفة قوانينه وأنه كان يتمنى أن يلتحق بكلية الحقوق.

لم أكن مقتنعة البتة بدراسة الحقوق، دراسة مملّة، ناهيك عن أن إيطاليا ليست دولتي الأصلية، فلِمَ اتعب نفسي في معرفة قوانينها، أنا لا

أملك سيارة حتى أعرف كيف أسدد مخالفاتها دون أن يخدعني أحدٌ، لا أملك جندولًا وأريد بيعه حتى أعرف حقوق البائع والمشتري، ولن أسجن بتهمة حيازة المخدرات إن كان هذا ما يقلقه !

إلا أنني كعادتي خضعت.. كم كان صعبًا على وقتها أن أنطق "لا"، كم كان صعبًا عليَّ ترك الطبخ، ترك كل هذا الدف.

ومن يومها ومشاعري باردة زرقاء!

بعد سنوات الدراسة التي مرت دون أن أدري لتضيف إلى عمري أربعة أعوام فأصبِح في الثانية والعشرين.

خلال سنوات الدراسة تعرفت على العديد من الأصدقاء متحاشية الوقوع في الحب؛ فقد كنت أشعر أنني غريبة وكأنني ياسمينة وسط حقل قمح أو عصفورة كبرت وسط سربٍ من الغربان !

وبعدما انتهت دراستي، رحلَ خالي إلى "مصر"، إلى بلدي "الفيوم" لأنه سئم الغربة، وكان يخشى أن يموت هنا وتفارق روحه الجسد في بلدٍ غريبٍ فيُدفَن بعيدًا عن أبويه وأجداده وكأن "مصر" لم تكن له سوى مقبرة.

هكذا عاد إلى "الفيوم" وأصبحت هنا وحدي.

سألني مرارًا أن أعود معه، إلا أنني لم أرضَ أبدًا، كنت أنتظر رحيله ورحيل قيودي معه؛ حتى أتحرر !

وكان أول ما فعلته هو ذهابي لمديرة مدرسة "اكواليا" – التي أعمل بها الآن – قصصت عليها أنني تحررت، فضحكت من حماسي المبالغ فيه ووَفت بوعدها لي لأُصبِح من يومها" شيف فصل الصغار لتعليم الطهي"

كان كل ما طلبته منِّي هو أن أعد الأطباق بعاطفة كبيرة، أن أجعل صفي متجددًا مبتكرًا حتى لا يمل الأطفال، وأعطيهم مساحة ليبدعوا حتى يقعوا في هوى الطهي كما وقعت أنا قبلهم ونصحتني في نهاية حديثها معي:

– استخدمي وصفات بسيطة، ولا تجعليني أندم.

فضحكت:

– لن تندمي أبدًا، أبدًا.

ثم سلّمتنى المريول الأبيض وقبعة الشيف الطويلة ونادتني:

– يا شيف !

فوقعت الكلمة وقع كلمة " أنا أحبك " على فتاة من شاب كانت مغرمة به لسنوات !

فقلت في فخرٍ:

– نعم ..

– كنت أود سؤالك، ما معنى اسمك، ما معنى "مشاعر"؟

ونطقت حرف العين بصعوبة فنظرت لها متفهمة وقلت لها بالإنجليزية:

- In English it means "Feeling"

اتسعت عيناها وقالت:

– آه مثل الحب، الشغف والشوق !

كان يجب أن أتوقع هذه الإجابة:

– نعم مثل هذه المشاعر ومثل الألم، العذاب، والجرح!، إنها مشاعر كثيرة وإن كان لي نصيب من اسمي كما يقولون فلا أعلم على أي مشاعر سأحصل.

تركتها بعدما استأذنتها وفي حلقها ألف سؤال وسؤال عنّي.

* * *

تخلصت من شرودي ونظرت إليهم:

– أنا شيف «مشاعر».

و لأتجنب الأسئلة التي باتت مكررة ومعاناة ألسنتهم الصغيرة في نُطق عين اسمي:

- نادوني شيف فقط، سأكون معلمتكم لمدة ساعتين.

ثم سلَّمت لكل واحدٍ منهم مريولًا أبيضَ وقبعة، الآن سيسخرون من بعضهم البعض إلا أنهم هذه المرة بالغوا قليلًا، فبكت فتاة لأن إحداهن نعتتها بـ "البدينة"، حاول صبي ضرب آخر بحجة أن هناك ذبابة تقف على قبعته وسادت الفوضى.

تركتهم دقائق يمرحون ويصلحون ما أفسدوه، فتصالحوا وتعرفوا على بعضهم البعض، وعندما هدئوا نوعًا ما، أشرت لهم أن يصطفوا امامي.

– سأسألكم سؤالًا، مَن منكم يتذكر ماذا كانت وجبة العداء بالأمس ؟

رفع عدد قليل يده فأشرت لهم أن يخفضوا أيديهم، وسألت مرة أخرى:

– مَن منكم يتذكر ماذا فعل بعد الغداء بالأمس؟

ارتفعت أيادٍ كثيرة فقلت لهم في مرح:

– أحيانًا ننسى ماذا تناولنا لكن لا ننسى أبدًا ماذا فعلنا بعد تناولنا للطعام، منكم من كان يلعب الكرة مع أصدقائه وأحرز هدفًا فأخذ يصيح "جووووووون"، ومنكم من تتذكر أنها كانت تتسابق مع فراشة ملونة في الحديقة حتى إنها كادت أن تلمسها !

تعالت همهمات فتاة نحيلة أن الفراشة كانت أبطأ منها، وأخرى صاحت أنها لم تكن تسابق الفراشات بالأمس.

ضحكت قائلة:

– الطعام يبعث فينا طاقة تجعلنا أنشط، مستعدين أن نلعب، نتسابق، نستذكر دروسنا وبسهولة نفهم، وممتلئين بالدفء حتى إن لَمَسْنا الثلج في الشتاء يذوب !

تبادلوا نظرات الملل فعرفت أن وقت الطبخ قد حان.

– من يريد تناول البيتزا اليوم ؟

تسابقوا في الكلام:

– أنا أعشق البيتزا، لا أحب الزيتون، ماما تعد لي البيتزا بقطع الجمبري، يامي !

– إذًا هيَّا نُرِي العالم أننا أفضل طباخين على وجه الكرة الأرضية.

وقف كل منهم على طاولة الطبخ الخاصة به، وأمامهم قطع مكورة من عجينة البيتزا، بعض المكونات وسكاكين بلاستيكية ملونة.

بدأت في فك الكيس الذي يغلّف قطعة العجينة، تابعوني بأعينهم ليسيروا على خطواتي، كنت أتعمد البطء حتى يلحقوا بي بسهولة.

وبينما نطبخ حكيت لهم عن أفضل طحين يُستخدم في عمل البيتزا:

- هو طحين " كابوتو" وأفضل أنواعه هو طحين الـ " Zero zero" ويسمى هكذا لأنه خالٍ تمامًا من قشور القمح وهذا مناسب لعجينة البيتزا، هل تصدقون أنهم ينتجون من هذا الطحين 14 ألف كيسٍ يوميًا !، تأتي شاحنة كبيرة إلى مصنع الطحين وتفرغ أطنانًا من القمح في أرضية بها شقوق كثيرة تسمح بمروره، وبينما يقف العاملون بجوار الشاحنة يتناثر غبار يحمل رائحة القمح، رائحة زكية جدًّا!

بعد مرور ساعة، اتسخت "مريولاتهم" البيضاء ببقع الصلصة الحمراء، كسا الطحين الأبيض وجوههم وحمل كل منهم البيتزا الخاص به إلى الفرن ثم جلسنا معًا نحسو الشيكولاتة الساخنة بينما تنضج البيتزا.

استمر اليوم على هذا المنوال، ترحل مجموعة وتأتي أخرى لأطهو البيتزا مرة أخرى وأحسو الشيكولا حتى جاءت الرابعة.

هكذا انتهى يومٌ آخر من العمل.

* * *

الهواء يتخلل شعري فيبعثره هنا وهناك، رائحة الشتاء تملأ الجو ممتزجة مع رذاذ البحر المتطاير من حولي، تلك العصفورة التي تحلق هناك وقعت تحت سحر " فينيسيا " فلم تعد تعرف طريقها إلى السرب، والطرقات امتلأت بقوالب الطوب التي تحبس مياه المطر فتجد الشوراع دائمًا جافة، جافة كلَيْلَة صيف !

وصلت البيت، أحكمت غلق الباب واستراح قلبي عند سماعي للتكّات الخاصة بالمفتاح، وهذه عادة أخرى لم أتخلَّ عنها منذ رحيل خالي إلى " مصر"، أضأت الأنوار ودلفت إلى غرفتي لأبدّل ثيابي مارة بجوار المرآة، نظرت للمرآة وضحكت، ضحكت كثيرًا حتى ارتعدت الحيطان من حولي، لم أكن يومًا صاخبة، أمام العالم كنت " الهادئة، الصموتة والخجولة " لكن بداخلي كان هناك بركان ينتظر وقتًا غير مناسبٍ بالمرة حتى تندلع نيرانه!

جال يخاطري كلام صديق الجامعة:

- انتِ هادئة كصفحة بحر !

محاولًا استعراض مهاراته في فَهم نفوس البشر.

وكان هذا أسخف ما قيل لي، وددت لو سألته ألم تسمع أبدًا عن نوبات هيستيرية تصيب البحر فيفرغ محتوياته على الرمال، عن سمكة ماتت وسط مياهه رغم إجادتها التامة للعوم، عن عالم يثور، يهدأ، يضحك، يصرخ ويرقص بداخله لكن لا يظهر لك منه سوى "صفحة من الهدوء!".

أدرت أغنية كان لي زمان لا أسمعها، فككت شعري وأول ثلاثة أزرار من قميصي الأبيض، أخذت أتمايل بهدوء وأنا أترنم ثم وجدت نفسي أدور وأدور، قدماي تنغرسان في البساط فينحني لأصابعي ويخضع لخطواتي.

درت ودرت حتى نسيت كل شيء حولي..

ضحكاتي أخذت تعلو، لو سمعني أحدٌ لن يستطيع أن يميز إن كنت أضحك أم أصرخ !

" عام جديد "

ألن تكف هذه الأعوام عن المجيء؟!

لم أعد أحتمل أعوامًا أخرى.

الصوت يعلو، صوت أنفاسي يعلو وصدري يهبط ويعلو..

حتى وقعت، وقعت من فرط الوجع !

* * *

- خالو

- نعم يا حبيبة خالو

- هيَّ العصافير بتعيط؟

* * *

أخذت "دوشًا" دافئًا، وبعدما انتهيت جرت أناملي المرتعشة على المرآة لترسم رسومات لم أفهم منها شيئًا فمحوتها سريعًا، بسهولة ينمحي ما ترسمه أناملنا، فكرت يومًا :"هل تتألم القلوب التي نرسمها على زجاج المرآة عندما نمحوها ؟"

ومن يومها وأنا كففت عن رسم القلوب، يكفي العالم فتيات حمقاوات يُزيّنَّ دفاترهن بقلوبٍ وسهام تخترقها.

وقفت في غرفتي استعدادًا للّيلة، ليلة هذا العام مختلفة بالنسبة لي؛ فأنا لم أتعود أبدًا على الخروج للاحتفال، دائمًا كنت أشاهد الاحتفالات من شرفة المنزل رغم أن في ليلة رأس السنة تمتلئ الطرقات بالسكارى ومشاهد كثيرة تجعلني أتلوّن خجلًا إلا أن كل هذا لم يكن يمنعني، كنت أود النزول للاحتفال، وأخْذ نصيبي من الفرحة، أن تنطبع أضواء الاحتفالات على وجهي، تلك الأضواء التي تحيل الليل إلى نهارٍ مشمس، لكن خالي لم يكن يسمح لي، وتذكرت كلماته:

- قلت لا..

- أرجوك يا خالي، لن أتأخر وإذا رأيت رجلًا وامرأة يتبادلان القُبل سأغمض عينيَّ كما في السينما.

- قلت لا، ولن أغيّر رأيي أبدًا.

طردت تلك الذكرى من عقلي، ارتديت ذلك الفستان القصير الذي ابتعته مع صديقتي، فستان في لون النسكافيه، وضعت حول عنقي عقدًا تتعلق بنهايته عصفورة فبدا وكأنها تطلب النجاة !

ثم ارتديت حذاء ذا كعبٍ بالغ في علوّه لعله يخفي قصر قامتي، صففت شعري البني، كحلت عيني بكحلٍ فاحم السواد، ووضعت أحمر الشفاه فبدت شفتاي كفراولتين.

لم أكد أنتهي حتى وصل لمسامعي صوت جرس الباب.

– أوه، لقد نسيتها..

وصحت:

- أنا قادمة.

ركضت نحو الباب وفتحته قائلة

– Buon Capodanno(2).

فصاحت بصوت أزعج سكان الكواكب الأخرى.

– Buon Capodanno

– أنتِ مجنونة؟!

– إنها المرة الأولى لكِ في السهر معي، ثم أنها ليلة رأس السنة لذا وجب بعض الجنون عندي حق أليس كذلك ؟

– كل الحق يا صديقتي..

– إذًا أسرعي.

رششت عطري الخوخي، وقلت لها فاتحة ذراعي بسعادة:

– أنا مستعدة للتحليق !

obeikan.com

فضحكت ضحكة رقيعة

– وتقولين إنني المجنونة ؟

رائحة الهواء المفعم بدخان الألعاب النارية خانق جدًا، الزحام كذلك خانق جدًا، الكل يتخبط في الكل، فستاني أقصر من اللازم أنزلته قليلًا ليغطي مساحة أكبر من ساقيَّ.

خرجت من البيت هكذا دون أن أفكر ماذا ستكون نتيجة تصرفاتي الطائشة هذه؟، لو عرف خالي سيقتلني حتمًا.

وسط كل هذه البهجة أنا الوحيدة التي ترتعد بردًا وخوفًا !

نظرت لي صديقتي غير مصدقة نظرة الرعب التي جعلت عينيَّ أوسع:

– «مشاعر»، ابتهجي قليلًا !

ومن حولي كان هناك رجل يقبّل امرأة بنهم، كانا في عالمٍ لا ينتمي لعالمنا..

هى تبتسم وتنظر له تلك النظرة فيقترب أكثر، وأنا أنظر لهما وأتلمس شفتيَّ.. لم يقبّلني أحدٌ هكذا أبدًا.

هل هذه هي القُبلة التي نغمض أعيننا عنها في دار السينما؟!

وبعد لحظات اكتشفت أن الكل سعيد، نظرت للسماء فوجدت القمر يتعطر برذاذ المطر، يعدل من استدارته، يزيد من نوره ويمشي بثقة نحو تلك النجمة التي لعدة ليالٍ انتظرته وعندما رأته هي يتقدم نحوها خجلت كثيرًا فأخذ ضوؤها يخبو ويضوي !

لقد حظيت بأمنيتها هذا العام.

نظرت للبحر فوجدت سمكة تمشّط شعر صغيرتها وتضع نجوم بحر وسط خصلاته، ثم تقبّلها وتدعها تذهب لتحتفل مع أصدقائها بالعام الجديد في عرض البحر !

نظرت للجميع، منهم من يرتدي زِيّ " بابا نويل "، منهم من يقدم لصغاره الحلوى، منهم من تحمل ابنتها وتقبّلها بحنانٍ هامسة في أذنها:

" أنتِ أجمل من البوشار بالشيكولاتة "

فتضحك في براءة.

ومن يمسك بيد حبيبته، باختصار العالم كله سعيد، الكل ينطبع على روحه ذلك الضوء المنطبع على السماء، فلماذا أكون أنا خائفة ومرتعبة هكذا !

أمسكت صديقتي بيدي، ضحكنا على نكات سخيفة، صرخنا نشوة، أكلنا المثلجات وحتى إننا رسمنا على وجوهنا " 2011 "

تمنيت أن أحظى بقُبلة مثل تلك التي شاهدتها.

ضحكت من أمنيتي.

وللحظات لم أعد نتبه لفستاني ولا لهؤلاء السكارى فقط انتهت لحرّيتي، لنفسي وللهواء النقي الذي لأول مرة وجد طريقه إلى رئتيّ !

ثم بدأ العد..

وقفت وسط الحشود وفي قلبي طفلة صغير متلهفة للعام الجديد

4

3

2

1

وانطلقت الألعاب النارية، ألوان كثيرة أضاءت السماء التي كانت قد أعلنت أن موعد النوم حان، علا صوتنا فرحًا بالعام الجديد فعدلت السماء عن قرارها وخلعت عنها رداء النوم لتشاركنا الفرحة !

تلك الليلة أجمل من الأحلام التي نراها في منامنا ونستيقظ لنبتسم كالبُلهاء !

احتضنت صديقتي متمنية لها أن يكون هذا العام هو عامها الأسعد وفتحت فمي لأضيف شيئًا، لكن صرخة حادة تصم الآذان منعتني..

لحظة خيم الصمت، ثم أصبحت الحركة سريعة، الكل يرمي ما بيده غير عابىء بشيء سوى النجاة بحياته، تلك الطفلة هناك ألقت ما تحمله من حلوى على الأرض وانطلقت تصرخ !

الصوت يعلو وأنا لا أفهم شيئًا.

أشار أحدهم للسماء، فرفعت عيني لأجد السماء أصبحت في لون الثلج، صوت رفرفة ممتزج بصراخ، لون أبيض ولون أحمر.

ما الذي يحدث؟

هنا أصابني الهلع، وضعت يدي على صدري وفعلت مثلما يفعل الجميع..

صرخت وصرخت !

عصافير بيضاء يكسوها الدم، أجنحتها ترفرف في محاولة فاشلة منها للتحليق، مناقير مفتوحة سوداء كأنها على وشك طلب النجدة لكن الوقت لم يسعفها، شهقات الاحتضار ترتفع من تلك الحناجر الصغيرة !

" هل تمطر السماء عصافير؟ "

كأن العالم قد توقف من حولي، لم أعد أسمع شيئًا سوى ضربات قلبي!

وسقطت تلك العصفورة قتيلة على رأسي

نظرت لها في هلعٍ ثم أظلمت الدنيا من حولي..

سواد.

* * *

obeikan.com

(1) صباح الخير

(2) عام جديد سعيد

الفصل الثاني

(مذكرات الخال)

- 1 -

استيقظت على صوت تلك البقرة اللعينة، ارتديت جلبابي الأبيض وذهبت لأهتم بالأرض!

الأرض التي أعلم جيدًا أنها لن تطرح لي سوى خيبة الأمل ولكل من يسكن هذا البيت !

سمعت أمي تردد

"أنت محسود يا ولدي"

يحسدونني أنا وعلى ماذا؟

على سيارة لا أملكها أم على بيت واسع من عدة طوابق لا أسكن فيه أم على وجه وسيم بالتأكيد ليس وجهي!

أيجوز حسدي على لا شيء؟

استغفرت الله وذهبت إلى الأرض دون أن أتذوق لقمة من فطيرة صنعتها أمي لا تفوح منها رائحة السمن البلدي لأننا لم نعد نشتريها !

* * *

obeikan.com

obeikan.com

الفصل الثالث

السماء تمطر طيورًا في أمريكا والسويد وإيطاليا !

شهدت مدينة "فينيسيا" في شمال "إيطاليا" سقوط 8000 حمامة فجأة من السماء على الأرض.

نقلًا عن شاهد عيان أن الحمام بدأ فجأة بالانخفاض من السماء على الأرض في حالة وفاة !

وتأتي حالة الوفاة للطيور في إيطاليا بعد وفاة ثلاثة آلاف طير في ولاية "اركنساس" الأمريكية، و70 غرابًا في "فالشوبنغ" جنوب "السويد" في وقت لاحق.

جميع التحقيقات الأولية قد رجّحت أن يكون السبب عائدًا إلى أمرين

الأمر الأول: التسمم

والثاني: هو نقص الأوكسجين:

لأن الطيور التي سقطت في سماء "الولايات المتحدة الأمريكية" لا تبدو عليها علامات العنف الخارجي مثل كسر الأجنحة والرقبة والمنقار وهو ذات ما يرجح بالنسبة إلى الطيور الميتة في "السويد"، لكن هذه أمور توحي بأن الطيور قد تعرضت إلى مرض أو قد يكون للمفرقعات التي

أطلقت أثناء الاحتفال برأس السنة الميلادية تأثير في ذلك !

*حقيقة

* * *

فتحت عينيَّ ببطء شديد، تحسست رأسي متألمة وعاودني منظر تلك العصفورة التي وقعت على رأسي قتيلة، أخذت أصرخ:

- ساعدوها.. ساعدوها

وألوح بيديَّ في الهواء حتى تألمت ذراته!، ثم غبت عن الوعي مرة أخرى.

وعندما استيقظت وجدتهم حولي، عصافير كبيرة بيضاء كبيرة جدًّا في حجم الإنسان، أجنحتها مُتكسرة يكسوها الدم، تحني أعناقها لتنظر لي تلك النظرة الخاوية التي تفترش عين كل من فارق الحياة !

لم أفهم ما يفعلون بي..

مستلقية أنا على ظهري اتلوى في الم، اغمض عيناي وافتحهما لعلي في كابوس سرعان ما سينتهي الا إن شيئًا لم يتغير.

اقتربوا مني أكثر وأكثر ثم صرخوا جميعا في وجهي صرخات حادة رفيعة !

صرخوا وصرخوا

حتى غبت عن الوعي – إن لم أكن غائبة بالفعل - !

وصرخت

"أريد أن أصحو !!"

سمعته يقول بحزم

– احقنيها بالنيوريل.

وعندها وجدت من يربت على كتفي:

- أأنتِ بخير؟

تنفست الصعداء وفتحت عيني لأجدني على سرير والأبيض يحيط بي من كل جانب، جدران مطلية بالأبيض، ورود بيضاء نمَت جوار نافذة بيضاء وساعة تتوسط الحائط عقاربها تتهادى على أرضية بيضاء ثم التقت عيناي بذلك الوسيم، أعني الطبيب الذي يرتدي معطفًا أبيض اللون.

وهنا قلت أغبى ما يمكن أن يقال:

– - ماذا حدث؟

وضع يده أمام عيني وطلب منّي أن أتابع إصبعه:

– لقد آتت بك صديقتك وأنتِ في حالة فقدانٍ تامٍ للوعي.

– وأين صديقتي ؟

– بالخارج، يمكنني منادتها لكِ.

– من فضلك

قلتها بإعياء وقبل أن يذهب سألته:

– متى سأعود لبيتي ؟

– في الغد، فقط استريحي الآن ولا تفكري في أي شيء.

obeikan.com

- حسنًا، سأحاول.

دخلت الغرفة وعيناها متورمتان من البكاء ثم ارتمت بين ذراعيَّ غير عابئة بتلك الأسلاك التي تدخل إلى يدي.

- «مشاعر»، لقد كدت أموت رعبًا.

- أنا بخير لا تخافي !

- لا أقصد خوفًا عليكِ، بالطبع خفت كثيرًا ولكن أرعبني ذلك المنظر، تلك العصافير التي سقطت من السماء ظننت أنه يوم الدينونة وأنا لم أتزوج بعد!

ضحكت من كل ذلك السخف وقلت بسخرية:

- شيء رهيب بالفعل.

لم تلاحظ سخريتي، وأكملت:

- حمدًا لله أنه لم يكن شيئًا ذا بال، فقط طيور عاشت حياة سيئة وقررت فجأة جميعها اللجوء للانتحار !

- عصافير تنتحر، فكرة لا بأس بها..

وقلت بنفاذ صبر وصوت حاولت جعله لطيفًا:

- اذهبي لبيتك أنا بخير، وغدًا سأحادثك عندما أعود إلى البيت !

تأملت ما حولي واستعدت ما قالته صديقتي..

حقًا ماذا حدث للعصافير ؟

obeikan.com

هل جُرِحَت حتى أدمى قلبها الوجع؟، هل أصابها الضجر من حدود السماء واشتاقت لمكانٍ أبعد من السماء؟، هل أصاب أجنحتها التعب فقررت أن تكف عن الطيران؟! هل قررت هكذا ببساطة أن تنتحر؟! أن تموت هي وأشقاؤها وأصدقاؤها في السرب، أن يفارقوا الحياة هادفين حياة أجمل، عش أوسع يجمعهم معًا، سماء لا حدود لها، جنة بدون طيور جارحة في ظلمة الليل تخطف صغارها فتصحو فزعة لتجد نفسها وحيدة! إن الانتحار الجماعي يضمن ألا يتعذب أحد لموت آخر، فإن الذين يموتون في النهاية هم الأقل حظًا بالتأكيد !

أفكاري مازالت مشوشة قليلًا، أغمضت عيني وغبت في نومٍ عميق هذه المرة كان بلا أحلام.

تقبلت في الفراش حتى كدت أن أسقط، إن هذا ليس سريري ولا تلك الوسادة المكتظة وسادتي بالتأكيد، لحظات وتذكرت المشفى، العصفورة، الصراخ، صديقتي والطبيب الوسيم.

رتبت حاجياتي وانتظرت في مللٍ أن يوقّع الطبيب على إذن الخروج الخاص بي، وقفت أمام النافذة أتأمل الطريق حتى سمعت نحنحته..

– «مشاعر»، كيف حالك اليوم ؟

ضحكت من طريقة نطقه لاسمي، حرف العين هذا سيتسبب في موت أحد الناطقين باسمي يومًا ما.

– على حد قولك إنها إغماءة فقط.

فنظر لي بقلق:

– هل تعانين من إغماءات متكررة ؟

– لالا أنا بخير، كانت هذه مرّتي الأولى، والحق يقال استمتعت بها جدًا.

ضحك على غير عادة الأطباء وأعطاني بطاقة تحمل اسمه ورقمه الشخصي.

– خذيه إذا احتجت أي استشارة.

– لِمَ كل هذا الاهتمام؟

– لنقل إنني قلق بعض الشيء، كنتِ في حالة هستيرية لم يعانِ منها أيٌّ من فاقدي الوعي الذين جاءوا بالأمس في ذلك الحادث اللعين.

– أنا بخير، وإن حدث ومرضت سوف أمرّ عليك بالتأكيد لأزعجك.

– أزعجيني كما تشائين وليتك تفعلين !

يا إلهي، هل يتغزل بي؟، فقلت له بقلة تهذيب:

– هل استطيع الذهاب الآن ؟

– تفضلي.

– إذًا اسمح لي.

ومررت جواره مودعة ذلك المشفى متمنية ألا أعود إليه أبدًا !

* * *

استقليت سيارة أجرة وعدت لبيتي أخيرًا، فتحت الباب ودلفت إلى الداخل كنا صباحًا فلم أشعر بحاجة لإضاءة أي أنوار، تجولت في الشقة وكأنني أول مرة أدخلها، شعور بالوحدة اجتاحني !

كنت أتمنى أن اجد من يفتح الباب لي وبابتسامة واسعة يستقبلني ويقول لي حتى ولو "مجاملة" إن البيت كان بلا روح بدوني !

ليت خالي هنا..

كنت منذ أسابيع سعيدة بسفره وحرة !

فلماذا أشتاق إليه الآن ؟

أمسكت بإطار خشبي يحوي صورته، لثّمت جبينه فاصطدمت شفتاي بزجاج الإطار البارد، بارد ككل شيء حولي !

جال بخاطري أن أتصل به لكن هاتفي كان قد ضاع في ذلك اليوم الأسود، ولا أملك رقمه في أي ورقة في البيت، آمل أن يتصل بي ويكون هذا قريبًا.

أعدت الإطار الخشبي إلى مكانه وبجواره وجدت صورة لي ممسكة بحقيبة جامعية مبهرجة الألوان كما كانت الموضة في تلك السنة وابتسامة خجول تشع في وجهي.

تأملت الصور التي تراصت على الكومود في ذلك الركن المظلم من البيت وتساءلت:

" لماذا لا توجد أي صورة لي وأنا صغيرة ؟ "

حتمًا هناك صورة لي بمريول المدرسة، صورة وأنا ألعب في الطين ووجهي ملوث، صورة وأنا أضحك وأقبّل خالي وصور كثيرة مثل هذه التي تجدها في كل بيت، لكنني لم أجد أي شيء !

حاولت أن أتذكر في أي مدرسة درست، ما شكل أبي وما هو طعم حنان أمي؟، هل كنت أجدل شعري أم أتركه حُرًا بدون شرائط تخنقه، هل أحببت الحليب أم كنت أنتظر أن تذهب زوجة خالي من المطبخ حتى أسكبه في الحوض مثلما يفعل بقية الأطفال ؟!

وهل كانت لي عروسة محشوة أفضّلها عن بقية عرائسي وآخذها معي سريري لتحتضني حتى أغط في نوم عميق؟

لم أتذكر أي شيء !

تحسست موضع الإصابة في رأسي وارتعبت.

حاولت الابتعاد عن أي أفكار سيئة، فتحت التلفاز وأنا أشرب كوبًا من عصير البرتقال وعلى الشاشة رأيته لأول مرة..

كان يتحدث بانفعالٍ شديد حتى ظننت أنني لو كنت أمامه الآن لتطاير رذاذ فمه على وجهي، صوته رجولي خشن يجذب أذنيك كالمغناطيس لتسمعه، ملامحه -وأقسم بقبر جدي- شرقية، ثم انتبهت لما يقوله، يا إلهي إنه يتحدث عن سقوط العصافير..

" ما حدث بالأمس يعد مأساة بالمعنى الحرفي للكلمة، أن تموت كل هذه الأعداد من الطيور دون معرفة السبب الحقيقي شيءٌ يدعو للحزن!

كائنات ضعيفة ما كانت تستحق أبدًا نهاية كهذه.."

ارتبكت المراسلة ولم تعرف ماذا تقول فرسمَتْ ابتسامة صفراء وأنهت الحديث.

رجل بحق مربك، وأنا في البيت أصابني سحره فما بالك بتلك المسكينة التي وقفت وجهًا لوجه أمامه !

بعد لحظات شكرها المذيع على هذا اللقاء الذي أجرته مع الرحَّالة المصري «آمن» الذي يجوب العالم بعلم بلده.

مصري إذًا..

لم يخطئ حدسي هذه المرة.

أمسكت بالحاسوب وأخذت أبحث عن اسمه في موقع " الفيس بوك " حتى وجدته.

ضغطت على "الإعجاب" للصفحة الخاصة به حتى يتاح لي معرفة أخباره، أنا لست مراهقة إن كان هذا قد خطر لك، ولن ألاحقه في الطرقات لكن شيئًا في عينيه أسرني ولا أدري ما هو !

شاهدت جميع صوره، لم تكن إيطاليا هي أولى محطاته، وأمام تلك الصورة توقفت يضحك ببراءة ويشير بيديه إلى شيءٍ بعيدٍ غير واضح للأسف لي، وحوله أطفال جالسين ينظرون له بانبهار!

هذا الرجل يشبهني إلى حدٍّ مرعبٍ..

لي صورة شبيهة بتلك؛ التي كنت فيها أجلس في المطبخ والأطفال يحيطون بي "بمراييلهم" التي تلطخت ببقع الطعام وهم ينظرون لي بانبهارٍ!

هذا ما كان ينقصني حادث، هاتف ضائع ورجل.

الرحمة يا الله !

* * *

- مش عاوزة عصفورة في عيد ميلادي

- ليه ؟ أنا قلت الهدية هتعجبك

- هتموت يا خالو، وهزعل عليها أوي بلاش !

* * *

عدت للمدرسة وأنا في حالة يرثى لها، استقبلتني المديرة كعادتها بحفاوة، ولكن هذه المرة رأيت القلق أسدًا يتجول في عينيها ينهشه الفضول وسألتني:

– أين كنتِ ؟، أصابني القلق.

رويت لها ما حدث فقالت لي بجدية:

– «مشاعر»، يجب مراجعة الطبيب مرة أخرى.

– إنها اصابة بسيطة، في الواقع إنها لا شيء، فقط أريد يومين لتعود لي عافيتي وأعود للعمل.

– و هو كذلك يومان فقط.

– ستشتاقين لي أليس كذلك ؟

obeikan.com

ضحكت كاشفة عن أسنان صفراء:

- اذهبي الآن..

- حسنًا..

وعدت مرة أخرى للبيت..

يومان من الملل !

جلست على طاولة المطبخ أدوّن بعض الوصفات البسيطة التي تصلح لصفى التعليمي، نهضت لأشاهد التلفاز، غفوت قليلًا على الأريكة ثم صحوت.

مرت أربع ساعات فقط !

خطر ببالي أن أتصفح صفحتي على "الفيس بوك" و"الفيس بوك" هو السفاح الذي يقتل الوقت قتلًا.

ووقعت عيني على ذلك الخبر: "جمعية الرفق بالحيوان تستضيف الرحّالة المصري في ندوة لمناقشة ظاهرة سقوط العصافير، على أن يتم اللقاء في تمام السادسة من مساء الغد".

لِمَ لا أذهب؟ لكن أجراس الإنذار أُطلِقَت بداخلي:

- ذلك الانجذاب ناتج عن تلك الوحدة التي تعانينها.

- كفاكي سذاجة.

- من المستحيل أن يُعجب بإيطالية مثلك.

مهلًا يا عقلي أنسيت؟، أنا أيضًا مصرية .

غريب أمر تلك الجنسية في أوقات أتذكرها وأفتخر بها، وأوقات أخرى أحاول فيها إخفاء ملامحي الشرقية عن الآخرين !

لو كانت " مصر" امرأة لماتت حسرة على عدم انتماء ابنتها !

* * *

في الصباح وقفت أمام دولابي واخترت ملابسي بعناية، لقد رجحت كفة القلب على العقل، سأذهب إلى الندوة فقط أرضي فضولي وأرحل ببساطة.

لن أتودد إليه كالمراهقات، ولن أنظر في عينيه لأغويه برموش استطالت !

فقط أراه وأرحل.

وقع اختياري على سروالٍ جينز غامق اللون، بلوزة بيضاء ومعطف أسود يدفئ مشاعري حتى لا أتهور !

كم جميلًا لو حملت "موقد" في كل مرة أخرج من البيت والكل ينظر لي ويصيح:

– مجنونة

وأنا أضحك وأقول لهم برضا:

- أنا دافئة، دافئة وسعيدة !

ارتديت ملابسي، وضعت القليل من مساحيق التجميل فإذا بي "أشِعّ" ووضعت حول رقبتي عقد العصفورة الذي كنت أرتديه يوم الحادث.

استقليت أول سيارة أجرة قابلتني، أعطيته العنوان وانتظرت بلهفة طفلة تنتظر مصروفها لتشتري الشيكولا.

– وصلنا..

قطع بصوته الجهوري أفكاري، نقدت السائق ماله وأسرعت باتجاه المكان في عدم ثقة !

صعدت السُّلّم، وبين كل سُلمة والأخرى يولد حُلمٌ بداخلي، تنفست بعمق وهممت أن أدخل المقر الخاص بالندوة، حينها مرَّ بجواري بخطوات واثقة مسرعة، حضوره طاغٍ وعطره لِصٌّ تسلل إلى أنفي فدار كل ما حولي.

أمكست بالدرابزون وأنا أقول:

– لقد رأيتِه وشممتِ عطره، ارحلي، هيَّا خذي حقيبتك واهربي كما لو كان الوحش يطاردك، عودي فتاة بسيطة كل ما تفعله في الحياة هو أن تطهو، أما الندوات والنقاشات لا تناسبك !

جررت أذيال خيبتي وهممت بالرحيل لكن استوقفني صوته وهو يتحدث بإنجليزية ممتازة

– فقط أتمنى حضور مصريّ يشاركني في الوطن!

سأعود فقط دقائق وأرحل، جلست في الخلف رغم وجود عشرات المقاعد الفارغة في الصفوف الأولى، نظرت إليه وهو يتكلم عن الرفق بالحيوان وأن على إيطاليا تشجيع علمائها لدراسة الظاهرة ومعرفة أسبابها حتى لا تتكرر وإن كان السبب من صُنع الإنسان فعليه أن يتوقف في الحال واستشهد بحديث الرسول – عليه الصلاة والسلام –

"ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء "

صدق رسول الله – صلى الله عليه وسلم –

وأنهى حديثه بشُكر الجمعية والحاضرين ثم أعطى الميكرفون للجالس بجواره.

تكلم الآخر عن يوم الدينونة وأنه طِبقًا لنبوءة شعب المايا فإن التقويم الأمريكي ينتهي في 2012، وإن الكوارث ستبدأ من الآن، وقال بثقة: إن الدليل على صدق النبوءة هو الانتحار الجماعي الذي شاهدناه من يومين !

رفع أحد الجالسين يده وقال بميوعة لا تليق برجل:

– في أمريكا والسويد سقط من السماء عشرات الغربان السوداء بينما هنا سقط الحمام الأبيض لأننا أنقياء القلوب يا سادة !

تأثر بعض الحاضرين بينما كتم الآخرين ضحكاتهم من رهافة حِس هذا الرجل التي لا تتناسب مع الموقف الجدي الذي نناقشه، تابعت «آمن» فوجدت علامات الاشمئزاز لاحت على وجهه ثم ضحك كالجميع.. ضحك وأذاب قلبي قطعة قطعة !

تحدثوا كثيرًا وعندما أوشكَت الندوة على الانتهاء، شكرت رئيسة الجمعية الضيوف والحاضرين وأنهت كلامها قائلة:

– دعوني أذكّركم أنه في عام 2006 اقترحت جمعيات الرفق بالحيوان هنا في إيطاليا أن يرتدي أفراد المنتخب الإيطالي لكرة القدم شريط حداد في مباراتهم أمام المنتخب الألماني حدادًا على قتل الدب "برونو"، ورأت الجمعيات وقتها أن هذا العمل الرمزي من شأنه الاعتراض على الطريقة الوحشية التي قُتِلَ بها الدب، المقصود أن علينا أن نترفق بالموجودات الحية حولنا جميعًا وإلا تحولت قلوبنا لأحجار صلبة!

صفَّق الجميع بحرارة وانتهت الندوة سريعًا هكذا ولم أملك الشجاعة لأتحدث عن إصابتي في حادثة سقوط العصافير.

كعادتي خائفة !

نظرت حولي وأدركت أنه لمحني من بعيد وابتسم، لم أجد أحدًا بجواري فأدركت أنني المعنية، ازدادت أناملي المرتجفة تمسُّكًا بالحقيبة، نظرت خلفي في ذعر واستعددت للركض إلا أنه كان أسرع منِّي واستوقفني:

– هل لي أن أتشرف باسمك؟

– لماذا ؟

– لأن ملامحك الشرقية يا عزيزتي تفضحك !

مدَّ كفه ليصافحني فتلامس كفانا وقلت بارتباك:

- «مشاعر»..

- لا أعتقد، أنا شرقي وأنتِ كذلك وكما يقولون " الدماء تحن".

حاولت كتم ضحكاتي:

- لا اقصد أنك شعرت بي، أنا فقط كنت أحاول أن أقول لك اسمي.

قال بذهول:

- اسمك «مشاعر» ؟

- نعم..

- لم أصادف يومًا فتاة بهذا الاسم، رائع !

- و أنا لم أصادف رجلًا يدعى «آمن» من قبل.

- أتعلمين استوقفتني تلك العصفورة في عقدك وأدركت سبب مجيئك اليوم، هل أعجبتك الندوة ؟

- نعم، لا بأس بها.

نظرت في ساعتي، عليَّ أن أرحل..

لقد اقترب كثيرًا، تعدَّى كل تلك الحواجز التي حاولتُ إلصاقها بينه وبين روحي وأنا الفراشة التي تقترب من الشمس أكثر وأكثر دون أن تُلَاحَظ بدأت بالفعل في الاحتراق !

نظراته الثاقبة نفذت إلى روحي، شعرت وكأن مشاعري أمامه عارية لا تجد ما يسترها !

– لابد أن اذهب، سعدت بلقائك يا سيد «آمن».

لم أعد كما ذهبت، تلك الأنثى التي بداخلي تغيرت، تخلت عن ضفائرها وأحلامها الوهمية، خلعت حذاء صدودها وتمردت لتمنح قلبها فرصة أو شِبه فرصة!

* * *

obeikan.com

obeikan.com

الفصل الرابع

(مذكرات الخال)

- 2 -

أمسكت بالفأس والشمس تذيب جسدي، العرق يغمرني ويبلل ثيابي التي تطلخت بالطين !

رفعت عيني وأنا أتمنى أن أبتعد عن هذا المكان، أركض بقدمين حافيتين وأبتعد حتى أحسب أنني ذهبت لكوكب آخر.

كل من في القرية بتحدث بصوتٍ خافتٍ عن الهجرة وترك الأرض، لكن تلك الأغنية تحلّق في أذهانهم ملحقة العار بالفكرة.

" عواد باع أرضه يا ولاد

شوفوا طوله وعرضه يا ولاد! "

الأوضاع سيئة هنا بالفعل ونحن لسنا بخير أبدًا، مهما حاولنا إخفاء ذلك !

* * *

obeikan.com

(5)

آخر يوم من العطلة، لم أعد أعاني الملل بعدما رأيته، وكأن الحياة قد قررت فجأة أن تحتضني، وكأن الفراشات بداخلي غادرت شرنقاتها وتحررت، حلّقت بعيدًا بعيدًا وتلونت بألوان الطيف !

أدمنت النظر إلى صورته حتى إنني جعلتها الخلفية على شاشة حاسوبي، حادثته مرارًا – محادثات وهمية بالطبع – حتى حسبتني جننت.

حكيت له عن وحدة ماتت أمام عينيه منتحرة، عن شجاعة تكوَّنت في أحشائي من رجل يدعى صوته.. عن وعن أشياء كثيرة !

ظهرت يا «آمن» في التوقيت المناسب كما تفعل الشمس صباحًا تشرق ليبدأ نهارنا وأنت أشرقت بداخلي فبدأ نهاري، نهاري المزيَّن بالنجوم!

لم أقابل رجلًا يحمل وطنًا في خطوط قميصه الأزرق ويحمل على ظهره علم بلده وكأنه يؤكد للعالم أنها إذا وقعت سيحملها حتى تقف على قدمها مرة أخرى لأنه ابنها البار.

وجدت فيك انتماء لم يكن قَط بداخلي، وجدت فيك وطنًا !

رجلٌ استطاع إزاحة صخرة كبيرة كنت أضعها في طريق الدخول إلى قلبي، وبسهولة وبنظرة واحدة !

نظرت لصورتك وقررت أنه يكفي هذا، سأراسلك..

ماذا سيحدث؟

هل سيصاب القطب الشمالي بالذوبان وهل سترحل الشمس عن السماء؟

لن يحدث شيء، وأنا لن أموت حزنًا إذا تجاهلت رسالتي، لكن سأطير فرحًا كعصفورة رأت وليدها لأول مرة إن أرسلت لي جوابًا حتى ولو كان بلا معنى !

كتبت:

"سيد آمن

أنا مشاعر، رأيتني بالأمس، أتمنى ألا تكون ذاكرتك ضعيفة فتنساني!"

سخف..

مسحت كل ما كتبت وبدأت من جديد:

"عزيزي آمن

تلك الكائنات الضعيفة أدمتني وأتمنى لو أتواصل معك لأتابع ما توصَّل إليه الخبراء بشأن هذا الحادث الأليم !

مشاعر"

وأرسلتها قبل أن يصيبني التردد !

هاتفت صديقتي بهاتفي الجديد الذي ابتعته في ذلك اليوم الذي رأيت فيه «آمن» لأول مرة ورويت لها ما حدث، فقالت متذمرة لاعنة غبائي:

– رسالة سخيفة لماذا لم تقولي "اشتقتك" أو "أتمنى أن أراك" أو "نحن نحمل ذات الجنسية فلِمَ لا نتزوج يا صاح"

ضحكت كثيرًا وتابعت هي غاضبة:

– إذا كنتِ تريدين معرفة ما أصاب العصافير كنتِ تواصلتي مع الجهة المختصة وليس مع ذلك الوسيم، عليك اللعنة !

لم أستطع الرد لأنها كانت إلى حدِّ ما محقة، تحججت أنني سأصحو باكرًا للعمل وتمنيت لها أحلام سوداء طويلة كلسانها.

ليلتها لم أنم، كنت أراقب صندوق رسائلي في لهفة إلا أن شيئًا لم يحدث، لم يرد على رسالتي.

لعنته في سري وألصقت به ملايين التهم الباطلة؛ أن له عشيقة في كل بلد يزوره، يسحرها بنظرات عينيه، يمسك بيدها ضاغطًا عليها برفق ثم يريها علم بلده الذي يحمله قائلًا:

"وددت لو نزعت ذلك النسر ووضعت مكانه صورتك وجُبت العالم حاملًا وجهكَ لأقول للعالم أجمع إنني أعشق تلك الفتاة التي سرقتني من ذاتي !"

ثم عدت لألتمس له الأعذار. .

بالتأكيد هو مشغول، عاد ليلًا ليغلبه النوم لكنه قبل أن ينام قرر أن يتصفح صفحته على "الفيس بوك" وهنا رأى رسالتي لكنه لم يفتحها لعدم استطاعته تجاوز اسمي حتى !

سرح في الملكوت متذكرًا شفتيَّ المكتنزتين، عطري وعينيَّ الواسعتين كبحر يخشى البحارة الإبحار فيه !

ومن كثرة التفكير بي غلبه النوم على الأيكة !

ابتسمت ورحلت عني الخيبة قليلًا، أغمضت عينيَّ ونمت لأحلم بأحلام مضطربة !

* * *

- رسمت في كرّاستي عصفورة صغيرة لها منقار جميل أوي أوي.

- وبعدين؟

- لما رجعت افتح الكراسة لقتها طارت !

- يا سلام يا مشاعر !

* * *

عندما أشرقت الشمس همست لي بصوت خافت أن هناك أخبارًا جديدة، ولم تنسَ أن تغمز لي بعينيها ذات الشعاع الذهبي، ركضت نحو الحاسوب وعندها وجدته قد أرسل لي ردًا على رسالتي منذ دقائق قليلة، طرت فرحًا ووضعت يدي على وَسطي وقلت بصوت مليء بثقة جديدة على أحبالي الصوتية:

- يالي من فاتنة !

لم يسع الكون أجنحتي عندما قرأت رده، أمسكت بهاتفي وصرخت في صديقتي:

– إنه يريد رؤيتي.

قالت بصوتٍ ناعسٍ لم يفِق بَعد:

- من هذا؟

– «آمن» أرسل لي ردًا على رسالتي وقال إنه يريد رؤيتي وبشدة، تعرفين صديقتك.. أصابني الغرور وقلت له إنني أعمل ولا وقت لدي، فسألني وماذا تعمل العصفورة؟، نعتني بالعصفورة أتصدقين؟

حدثته عن عملي فقال لي حسنًا سأمرّ عليك في الرابعة ولم يعطني فرصة للرد، حمدًا لله أنه لم يعطني فرصة لأقول لا كعادتي، سارأه اليوم !

ماذا أرتدي هاه؟ لماذا لا تجيبينني؟!

لم أتلقَّ ردًّا، لقد نامت الحمقاء.

أخرجتُ جميع ما في دولابي، لا شيء يليق بالعمل في المطبخ، وفي ذات الوقت يليق بالتنزه ومع من

(معه) !

وبعد دقائق كثيرة ارتديت ملابسي وذهبت إلى العمل.

* * *

التف حولي الأطفال وكل منهم قد ارتدى مريوله الذي لم يتسخ بعد، وبسبب تشتتي وارتباكي نسيت ماذا كنت أقول في بداية الصف فصحت بهم:

– من يريد تناول الباستا ؟

فرفعوا أيديهم في سعادة، فقلت لهم بشقاوة:

– و من يريد طهو الباستا؟

ارتفعت أيادٍ قليلة، وفي عيون البعض كان هناك بضع ترقب..

حدثتهم عن متعة الطهو التي تضاهي متعة تناول ما طهيناه وتحديتهم إن اليوم سيقتنعون بصحة كلامي.

قبلنا "البنادورة" قبل أن نقطّعها، علمتهم كيف نصنع قلوب من عجينة الباستا، وحككت أنفي بيدي المليئة بالطحين فانطبعت بقع الدقيق البيضاء عليها، فأخذوا يضحكون بهستيرية تناسب أعمارهم الصغيرة جدًّا.

كان صفًّا مرحًا والكل كان سعيدًا.

وتوالت المجموعات واحدة تلو الأخرى أكثر ما كررته اليوم هو أن نطهو بحب، أن نحب التوابل ورائحتها الذكية، نحب ألوان الطعام ورائحة الخبز.

لكن لفت انتباهي فتاة تورات خلف صديقتها خجلة، لم يظهر من ملامح وجهها سوى عينيها الواسعتين جدًّا، شيء ما جذبني فيها، حاولت أن

أقترب منها لكنها أسرعت هاربة متوارية خلف فتاة أخرى، فقررت أن أتركها بحالها، طفلة خجولة هي، ذكرتني بنفسي كثيرًا !

وبعدما انتهينا من إعداد الباستا والصوص الأحمر الخاص بها، مررت على الطاولات لأتذوق كل الأطباق وهنا لم أجد الفتاة، ربما تركت الصف في منتصفه ولم أدرك أنا ذلك لانهماكي في الفصل بين تلميذين يلقيان على رؤوس بعضهما البعض الباستا.

وبنهاية الصف أعطيت كلٌّ منهم كيسًا مملوءًا بالنجوم البلاستيكية - التي تُلصَق في غرف نومهم – كهدية رمزية على مشاركتهم في صف الطبخ.

* * *

اضطربت كثيرًا عندما أصحبت الساعة الرابعة، حاولت تنظيم نفسي لكني لم أفلح، أصابني التوتر كعادتي وهذا التوتر اللعين دائمًا ما يفسد مخططاتي، أمسكت بكفّي المثلج لعلي أهدأ قليلًا !

وحاولت التحدث مع نفسي ..

"إنه لقاء عادي كأنه صديق، تحدثي بحرية.. ولا تحاولي أن تكوني أخرى غير نفسك، فقط "

سأراه اليوم..

سيتلامس كفانا كأول مرة، ستتلون نظراتي حُمرة أمام نظراته وستختلج كل نبضة في القلب !

متى حدث أن أعجبت به لا أعلم، لا أستطيع أن أسميه إعجابًا، شيءٌ أسرني وكفاني هذا الإحساس.

ألقيت نظرة سريعة على صورتي في المرآة، بدوت أنحف بقميصي الأسود وسروالي الجينز الضيق، عقصت شعري على هيئة "ذيل حصان" وحررت خصلتين لتتنفسا، استبدلت حذائي المستوي على الأرض بآخر ذي كعبٍ متوسط العلو، وأخيرًا تركت سحابة من رائحة الخوخ تمر على جسدي.

متلهفة لرؤيته لهفة طفلة تنتظر أن يأتيها والدها بكيس مليء بالشيكولاتة، لكن من قال إنك تشبه الشيكولاتة، ففي مسابقة قامت بداخلي نافست الشيكولاتة يا «آمن» في سمارها وربحت!

اختبأت خلف نافذة تطل على الطريق حينما لمحتك قادمًا من بعيد، حسدت الطرقات عليك، حسدت الموجودات لأنها تتلقى نظرة من عينيك، حسدت البحر لاحتوائه جسدك وحسدت تلك السمكة التي مرت بجوارك متعللة بموجة جرفتها لعندك !

واليوم أحسدني لأنك آتٍ لأجلي !

وقفت أمامك متلعثمة إلا أنك كنت تتصرف بتلقائية، ألقيت السلام وابتسمت تلك الابتسامة التي لا تظهر سوى لي، ففي تلك الندوة كانت ابتسامتك دبلوماسية باردة لكن هذه تختلف واسميتها " ابتسامة مشاعر"

لأجعلها خاصة بي وحدي.

نسيت توتري وأنت تحدثني عن كل بلد وطأته قدمك، شعرت وكأنني كنت أسافر معك إلى حد أن عينيَّ ضاقتا عندما حدثتني عن الصين وعادتهم الغريبة، تجدَّل شعري لضفائر متعددة كفتاة إفريقية سمراء وخفق قلبي عندما حدثتني عن "مصر"..

بلدي.

وشعرت بشريان النيل يغذي شعور الحنين بداخلي !

توقفت عن الحديث عندما وصلنا إلى " الجراند كانال ".

احتللنا أحد المقاعد وأمام أبصارنا امتد البحر تصطف على أركانه القوارب المائية التي تسمى بـ "الجندول" مدارية آثار أقدام الشمس التي طبعت على صفحته ويترامى لمسامعنا صوت السعادة، تلك الضحكة التي فرَّت من أحدهم، نظرة خجلة تنطق بأكثر مما يتسع المدى، والسماء الصافية تحلّق بها طيور النورس وتتناقل أخبار العشاق !

حدثته بثقة عن "الجراند كانال"

– جراند كانال هي قناة تؤدي في النهاية إلى بحيرة البندقية وتأخذ القناة شكل "S" مقلوبة.

وأشرت له بيدي لعلامة الـ "S".

كان حَسِن الإنصات وتلك الابتسامة لا تفارقه، وعندما سكت متطلعة إليه قال بدهشة:

– ألن تحدثيني عن "فينيسيا" يا عصفورة؟

- لماذا تناديني بـ "عصفورة" ؟

- لأن جناحيك البيضاوين يتوقان بشدة للتحليق !

لم أفهم مغزى كلامه وفضلت ألا أسأل، اعتدلت في جلستي وحدثته بولع لم أستطع مداراته عن "فينيسيا":

- جئت من "مصر" للعيش مع خالي هنا، ومنذ وطأت قدماي هذه الأرض وأنا أحببتها، كلما ضاق بي أو اختنقت تركت قلبي في أحد القوارب المائية وتنزهت أنا وهو فقط ناسيين كل شيء حولنا. .

وعلى هذا الجسر بالذات، سرت أنا وخالي منذ سنوات، وكان ينصحني بأن كلما تشوشت الرؤية في عينيَّ واختلط الخطأ بالصواب آتي إلى هنا لألقي بهمومي إلى البحر الواسع وعلامات "الإكس" التي نفشت على خشب الجسر ستدلني على الطريق الخطأ لأجتنبه فينفرج همي كعقدة آن أوانها كي تنفك، وكان يرفع يده لأعلى ويدعو

" يارب احفظها".

قضيت في "فينيسيا" سنوات سعيدة، أول شعرة من رأسي قررت أن تطول، أول حضن من خالي، أول قَصّة شعر "كيرلي" وأول قُبلة سرقتها من روج أحمر لشفاهي..

أشياء لاتنسى.

دعني أحدثك عن "فينيسيا" كما درستها في حصص التاريخ المملة. .

بُنيَت "فينيسيا" على الماء وتتكون من 116 جزيرة، تعددت أسماء هذه المدينة فسمّيت بـ "مدينة العشاق" لأنها أكثر مدينة رومانسية في العالم،

" ملكة البحر الأدرياتيكي" لإطلالتها المميزة عليه، "مدينة الجسور" لاحتوائها على ما يقرب من 416 جسر وأخيرًا بـ "مدينة القطط" لأنه عندما انتشر الطاعون انتشرت معه الجرذان فأتوا ببعض القطط الشرسة من "سوريا" و "فلسطين" لتخلصهم من الطاعون، لذا هم يعتقدون أن القطط جالبة للحظ..

آه نسيت، "فينيسيا" هي موطن "كازانوفا"

وغمزت له

فقال بلهجة مسرحية

– لقد وقعت في غرام "فينيسيا"، أنا عاشق !

خيَّم الصمت ولم يقطعه سوى نظرات أرسلت برسائل عدة بين عيوننا، آه من هذا المغناطيس، وددت لو ألقيت بنفسي بين ذراعيه؛ فأنا أشتاق إلى لحظة أمان، نظرات الذعر في عيني باتت مستديمة، الوحدة تقتلني من الداخل وأمام عينيه تتلاشى ببساطة هكذا وكأنني وجدت بعد غربة "وطن"!

تنحنحت عندما طال صمتنا وغمغمت بكلماتٍ غير واضحة عن الطقس فأمسك بيدي وهمس:

– أرى في تعاريج ملامحك بلدي، كلانا مغترب إلا أن الحنين يتداوى بك وأنسى غربتي فقط عندما أحادثك !

ابتسمت في خجلٍ، وددت لو قلت:

" بل أنا التي وجدت فيك وطنًا لم أعد أتذكره بالمرة "

إلا أنني آثرت الصمت:

– ألم تشتاقي لشمس مصر ولأهلك؟

شمس مصر وأهلي..

لم أعد أتذكر تلك الأيام وكأنها لم تكن يومًا موجودة، لقد نبش بيديه موضوعًا أحاول عدم التحدث فيه حتى مع "نفسي".

أنا لست بخير أبدًا !

لم أعد أتذكر (مشاعر) الصغيرة، لم أعد أتذكر كيف كان أبواي يبدوان ولم تعد أذني تتذكر حكاوي جدتي. .

والغريب أنني لم أجد أي صورة تذكِّرني بتلك المرحلة من عمري وكأنني ولدت لأجد طولي قد تعدَّى المتر فجأة!

حاولت تغيير الموضوع وقلت باهتمام:

– ماذا عن العصافير؟

– لا جديد، مجرد تخمينات هدة، لكن على الأرجح أنها ماتت من جراء الألعاب النارية.

وضعت يدي على صدري في ألمٍ:

– أتعني أنها ماتت من الهلع ؟

هطلت العَبرات من عيني، ألجمته مفاجأة بكائي فاقترب منِّي:

– أيتها الصغيرة، ماذا حدث ؟

– «آمن» آسفة، حقيقة لا أعلم ماذا حدث لي.

نظر لي باهتمام

– «مشاعر» لماذا يؤلمك الحديث عن العصافير بهذا الشكل ؟

حاولت التملص من الإجابة إلا أن إصراره حثني على التحدث. .

حكيت له عن ليلة رأس السنة دون ذِكر تفاصيل عدة أحاول أنا نفسي نسيانها !، وعندما انتهيت، أردت سريعًا أن آخذ بعضي وأرحل، أجلس وحيدة في ركن من أركان البيت المظلم، أحتضن نفسي وأبكي بصمت !

استأذنته أن أذهب، فلم يسعه سوى أن يقول:

– لن ألح عليكِ أن تبقى أكثر، لكن هل لي برقم هاتفك لأطمئن عليكِ، موافقة ؟

كدت أن أرفض إلا أنني أعطيته رقم هاتفي غير عابئة بأجراس الإنذار التي أخذت تدق بداخلي.

لوحت له بيدي مودعة فصاح بالعربية:

– «مشاعر» أنا سعيد !

مجنون ورائع !

مشيت نحو البيت وتلك النبضات في قلبي تدندن معي أغنية أعشقها

You gave me wings and made me fly

You touched my hand, I could touch the sky

I lost my faith, you gave it back to me

You said no star was out of reach

* * *

ضغطت برفق على قابس النور فتململ قليلًا ثم أنار البيت، درت حول نفسي بسعادة ولم يوفقني سوى رنين الهاتف..

- «آمن»

لم أعرف كيف أبدأ الحديث. هل أكتفي بإجابات مقتضبة عن أنني عدت للبيت وأنني بخير، أم أفصح عمّا بداخلي من مشاعر متناقضة؟

- أنا وصلت منذ دقائق، أنرت البيت وجلست على الأريكة كقطة كسولة.

- و ماذا أيضًا؟

لازمت الصمت برهة:

- لا شيء، وأنت هل وصلت ؟

- لن أصل أبدًا !

- كيف هذا ؟

- فقدت ذاكرتي في عينيك ونسيت عنوان البيت !!

ضحكت:

- وماذا أيضًا ؟

- لا أريد النوم، أريد أن أعرف عنك كل شيء.

- وإذا رفضت؟

obeikan.com

– سآتي غدًا لعملك، وبكل بساطة أمنع كل تلميذ من حضور صفّك وأقول لهم بغضبٍ إن درس اليوم خاص بي وحدي.

– سأموت من الضحك، توقف أرجوك !

وتحدثنا والحديث أتى بحديث ونسينا الوقت، لم أعد أعرف تجاوزت العاشرة أم في لمح البصر تجاوزت الثالثة صباحًا.

حكى لي عن دراسته في كلية الآداب، وعن ساعة جامعة القاهرة التي يراها من كل موقع في الجامعة وكأنها ابتسامة الموناليزا التي تلاحق أعين الناس أينما ذهبوا !

استمعت لصوته، إنها الراحة تدثرني، شعور بالدفء يغمرني لم أعد أحتاج لموقدٍ فـ «آمن» أغناني عنه !

سعادة ما بعدها سعادة و تثاءبت في إرهاقٍ:

- إنها السابعة..

- أشتاقك منذ الآن !

يشتاقني !

تمتمت بكلمات مسرعة خجول:

– اذهب لتنام، يبدو عليك التعب وأنا ساذهب للعمل سلام !

وأغلقت الهاتف، متناسية أن أخبره بأنني لن أشتاقه لأنه أصبح هنا.. " بداخلي !".

* * *

obeikan.com

الفصل السادس

(مذكرات الخال)

- 3 -

في هذا اليوم سرقت حسناء قلبي ولم تدفع الثمن أبدًا !

كنت أتهيأ للذهاب إلى البحيرة عندما مرت بجوار أعواد البرسيم - التي كنت أستلقي تحتها – بجلباب أسود نصفه العلوي (يشف) ونصفه السفلي (يصف) !

وخصلات شعرها البنية كالبندق هاربة من حجابها الحريري.

تلفتت حولها، فاختبأت خلف نخلة زُرعت هنا خصيصًا من أجلي، من أجل إن تتسنى لي رؤية كل هذا الجمال.

انحنت لتملأ الدلو بالمياه فانفرجت أساريري وابتسمت !

عندها استقامت قامتها ولمحتني، تلاقت عيني الذابلة بعينها الزرقاوين كقطعة من السماء

و صاحت بي:

- إنت قليل الأدب !

* * *

obeikan.com

الفصل السابع

لم أصدق أنَّ أسبوعًا قد مرَّ بهذه السرعة، أسبوعًا من السحر، تلك الشرارات المضيئة التي لمعت فجأة في حياتي، أصبحت أكثر سعادة، أكثر ثقة بنفسي وأكثر شعورًا بالرضا وهذا التغيير كان سببه (هو) !

لم يمر يومًا دون أن أراه، أن تنطبع صورتي في عينيه فتزداد عينيه لمعانًا وأزداد أنا إشراقًا !

لم أحب من قبل، هكذا هو الحب إذًا !

«آمن»..

أيها العزيز، ماذا فعلت بي ؟

وفي عملي أُفتُضِح أمري، البعض منهم لمحت نبرات الحسد في أحباله الصوتية، والبعض الآخر تمنى لي الخير بصدق.

تزايدت أعداد تلاميذي بعد تغيرات طفيفة أجريتها في المدرسة، بعض المرح، الوصفات الجديدة والرحلات التي قدمتها للطلبة المميزين، رحلات مثل زيارة مصانع الشيكولاتة، معرفة كيف يتم صنع أشكال كثيرة من الشيكولاتة بأيدي فنانين متمرسين، والتعرف على أنواع عدة من الشيكولاتة، وبنهاية الرحلة تحل الاستفادة على الجميع ويرحلون والشلالات الداكنة تتقطر من أناملهم الصغيرة.

تفتحت أنا كوردة لم تأخذ كفايتها يومًا من الماء وسقاها أحدهم على غفلة منها!

«آمن»

كان معي في كل لحظة، كان ينتهي من عمله وأنتهي أنا الأخرى من عملي ونلتقي، أخذته إلى كل الأماكن التي تمنيت سرًا أن أزورها مع من أحب.

تقلبت في سريري، يبدو أن النوم قد تاه وهو في طريقه إليَّ، وقعت عيناي على ألبوم الصور الموضوع على الكومود بجواري، فقررت أن أتصفحه من جديد، أمسكته برفقٍ فهو هدية منه وتذكرته حين قال لي:

"كل صورة جمعتنا وراءها حكاية وتفاصيل لن يعرفها سوانا – أنا وانتي-.

تطلعت إليَّ. .

الصورة الاولى

(أنا متأبطة ذراعه في فستان خوخي اللون وهو ينظر لي تلك الابتسامة التي أعشقها، وحولنا زحام شديد من فساتين السهرة الليلية والبذلات السوداء الأنيقة)

و تذكرت. .

حين فاجأني بتذكرتين لعرض (بحيرة البجع) في مسرح Le Fenice - أي العنقاء – الشهير.

ارتديت أجمل ما امتلكتْه خزانة ثيابي، وضعت البسيط جدًّا من مساحيق التجميل، وعندما رأيته ينتظرني بنهاية السُلم ببذلته السوداء وقعت في هواه مرة أخرى !

قرأت يومًا أن الرجل ليس الذي يوقع أكثر من امرأة في هواه بل الذي يوقع امرأة واحدة في هواه أكثر من مرة، وهكذا كان هو.

اصطفت أمامي المقاعد المكسوة بالقطيفة الحمراء، الستائر نحاسية اللون مطوية كورقة حاولت فتاة أن تطويها على شكل مروحة لتجلب لها النسمات الطيبة وفي السقف زخارف راقية جدًّا في لون الشمس، أما عن الجو العام فرائحة الخشب تفوح من أرضية المسرح..

مَن يصدق أن كل هذه الروعة قد احترقت وأعيد بناؤها مرتين، فقام هذا المسرح من الرماد كما العنقاء.

الكل متأنق، الكل يحيي بعضه البعض وكأنهم سادة العالم.

جلسنا نتابع العرض، لم أتخيله بمثل هذه الروعة، عشت قصة الفتاة المسكينة التي تحولت إلى بجعة جراء لعنة اصابتها و"الحب الحقيقي" هو الذي ينقذها من هذه اللعنة.

و عندما انتهى العرض وجدتني ابكي، لم يعلق «آمن» على بكائي إنما نظر لي نظرة فهمت منها ما يتردد بداخله

" ألن تكف هذه البلهاء عن البكاء أبدًا !".

الصورة الثانية

(أقف وحيدة في محطة قطار "سانتا لوتشيا" تحت لافتة تحمل الحرفين "FS" - اللذين يمثلان سكك حديد الدولة – أنتظره !)

يومها تأخر «آمن» جدًّا ولم يأتِ في موعده لم أعتَد منه هذا، دائمًا كان يصل باكرًا يجلس لينتظرني ومهما أتيت متأخرة لا يتذمر ولا يشكو، بعد

عشر دقائق كاملة أصابني الحزن، اعقدت أنه سيتخلّف عن موعدنا، فاستندت على الحجارة الرمادية ونظرت للسماء أرجوها أن تأتي به سريعًا فأنا أشتاقه بشدة.

و لم أكن أعلم أنه ينتظر اللحظة المناسبة فقط ليلتقط تلك الصورة الرائعة.

الصورة الثالثة

(أنا وآمن في أحد المقاهي وبجوارنا حمامة بيضاء تحاول الاستيلاء على قطعة من الخبز الموضوع في السلال)

من المعروف في إيطاليا أن القوانين تمنع إطعام الحمام، فكان يتجه للمقاهي يحاول تناول الإفطار مع الجالسين في المقهى، وكان البعض يوافق بسعادة، فمن يرى حمامة بيضاء جائعة ويرفض إطعامها لا يملك قلبًا بالتأكيد.

الصورة الرابعة

(آمن ينظر لي نظرة معاتبة، ووجهي بلون الفراولة من الضحك)

في هذه الصورة كنا في "بيت النحس" وهو بيت بناه (جوفاني داربو)، قصر بديع على شاطىء القناة وجعل واجهته من الرخام النفيس والمرمر لكن للأسف كل من سكن فيه انتهى بالإفلاس أو الانتحار !

لم يقتنع «آمن» بالنحس الذي يسكن هذا البيت فمازحته ممسكة بصدري، متصعنة علامات الألم وعندما اقترب مني ووجهه يكسوه القلق صحت فيه:

" لقد أوقعت بك يا سيد "لا أؤمن بالخرافات"! ".

الصورة الخامسة

(في هذه الصورة كنت أرتدي فستانًا فيروزيًّا وبجواري وصيفات يرتدين ذات الفستان والعروس – صديقتي – بفستان أبيض قصير جدًا، الكل ينظر لها وأنا أنظر لـ «آمن» وهو يقف في مواجهتي ببذلته السوداء ويبتسم لي !)

ذلك اليوم كان عرس صديقتي في مدرسة الطبخ واختارتني كوصيفة لها، جاء «آمن» معي وكانت عاداتنا في الأعراس تدهشه؛ لأن التقاليد تقتضي بالذهاب لبيت العروس سيرًا على الأقدام لعقد القران، وفي الطريق نلقي أشياء ترمز لحياة العروسين فيما بعد، فألقيت أنا بقميص نوم أبيض ليجعلها جميلة في عين زوجها للأبد، وعندما أوصلنا العروسين لبيتهما، ألقى العريس بمزهرية لا تحوي زهورًا فتفتت قطع كثيرة جدًّا وابتسم هو بسعادة، سألني «آمن» لِمَ يلقي العريس بمحتويات البيت؟ فقلت له أنه بمقدار قطع المزهرية المتكسرة سيقضيان سنوات حُلوة مع بعضهما البعض وقتها قال لي:

"أحبك وأنا مؤمن أن سنواتنا معًا ستكون حُلوة بدون كسر أي مزهريات!".

الصورة السادسة

و الأخيرة في الألبوم

(في جندول أسود جالسان ورأسانا متقاربتان ونظرة لن أنساها أبدًا تستوطن عينيه وفي عينيَّ خجل سكن بين رموشي الطويلة).

يومها كنا نسير في إحدى الطرقات وصوت الكمنجة يتصاعد من أحد المقاهي، رائحة جُبن الموتزريلا تمددت لأبعد من هنا بشارعين ممتزجة برائحة البحر المالح وصياح البحارة مناديين السائحيين أن يتجهوا في جولة معهم لقلب البحر المتقلب دائمًا.

نظرت لعينيه وبحت بأمنية منذ زمن أريد أن أحققها؛ أن أركب الجندول عند مغيب الشمس ليمر بنا تحت "جسر التنهدات" ولم أطلعه على بقية أمنيتي !

أمسك بيدي وأجلسني في ذلك الجندول الذي أخذ يتأرجح بنا يمينًا ويسارًا مخلفًا عواصف من الشوق بداخل كل منا، وعندما مررنا تحت الجسر عند مغيب الشمس في الوقت الذي قرعت فيه أجراس كنيسة "سان مارك" عرفت أنني إن قبّلته الآن سيقع في حبي للأبد !

و لم أعِ أن بداخله نفس أمنيتي.

إلا عندما اقترب منّي، اقترب أكثر مما ينبغي

أذاقني قبلة مرت سنوات فيها ولم أدرك!، واحتواني ناسيين كل ما يحيط بنا: البحّار، الشمس التي أوشكت على المغيب، وتلك العصفورة الضائعة التي تتنصت علينا من بعيد .

قال لي مبتسمًا:

- الأسطورة تقول إن من يقبّل حبيبته تحت هذا الجسر عند مغيب الشمس ويستمع أثناء قُبلته لأجراس الكنيسة سيحظى بحبها للأبد !

- «آمن» أحبك..

- أما أنا فأعشقك يا «مشاعر».

أغلقت ألبوم الصور متلمسة شفاهي المكتنزة، سرت رعشة في جسدي.

أهكذا تكون القُبلة ؟

كنت أحسب القُبَل التي تاهت في الهواء بيني وبينه هي القبل الحقيقية، لكنه أراني الحقيقة كشف عنها ذلك الحجاب الحريري ومنذ وقعت عيناي عليها و عرفتها أشتاقها كل ليلة وتشتاقها شفاهي !

يالي من حمقاء محظوظة.

لكن بقي سؤال سؤرقني، لقد نسيت في غمرة سعادتي جذوري الشرقية وكلمات خالي !

خفت أن يتركني لاندفاعي وتهوري أو يقول بينه وبين نفسه

" هل حظى آخر بقُبلة من شفتيها الخوخيتين ؟"

أمسكت بورقة ونفشت عليها مخاوفي حتى أقتلها

"احتضنته ناسية أنني فتاة شرقية ،فتركني !

جبت الأرض بحثًا عنه ولم أجده حتى إنني حسبت أنه توارى خلف الشمس !

سألت طيور السنونو -التي كبرت ونما جناحاها- عنه، سألت القطارات هل رحل يومًا في إحداها، حتى عقارب الساعة سألتها هل انتظر مجيء الرابعة عصرًا حتى يسمع صوت أحدهم كما كان يفعل معي !

أدماني الوجع، أمسكت بصدري وبكيت!

فأنا لم أقصد ما فعلته، جلَّ ما حدث أنني انجرفت وراء مشاعري، ألا يحق للمرأة الشرقية أن تبوح بمكنونات روحها ؟."

تركت القلم وركضت أرسل له رسالة نصية

- «آمن» أشتاقك..

فردَّ بسرعة فاقت سرعة الضوء:

-لن أتركك أبدًا يا «مشاعر»، أحبك !

أغمضت عينيَّ ونمت محتضنة هاتفي.

* * *

obeikan.com

الفصل الثامن

(مذكرات الخال)

- 4 -

تكررت لقاؤتنا، كان يشوبها السعادة من جانبي ومن جانبها الخوف، فكانت تتلفت حولها كل خطوتين !

اخترنا بقعة منعزلة نوعًا ما حتى تحتضن زاويتها لقاءاتنا وكعادتنا نسينا الوقت، أهالي القرية والشمس التي تأخرت عن أولادها وحان وقت عودتها للبيت. حدثتني هذه المرة عنها أكثر، عن التربية القاسية التي تلقتها منذ الصغر، عن حلمها أن تكمل تعليمها أو على الأقل "تفك الخط" على حد قولها حتى إنها حدثتني عنّي !

كانت تراني مثلما أراها "مميزًا"..

و كم أسعدني هذا.

اقتربتُ منها فقالت بدلالٍ قتلني:

- عيب

فقبضت بأناملي على كفها الناعم:

- أحبك يا "بت" !

* * *

obeikan.com

obeikan.com

(9)

جاءت الرابعة..

بعد يوم مرهق من العمل، أخذت حقيبتي وأسرعت للبيت، أشتاق للسرير فجفوني تزن أطنانًا.

وضعت رأسي على الوسادة، غبت في النوم وبعد ساعتين استيقظت وحبيبات العرق الباردة – كحبيبات عقد لولي انفرط – تتساقط جاعلة منامتي تلتصق بجسدي كرضيع يلتصق بأمه طلبًا للحماية !

شيء في ذلك الحلم أدماني، تلك الفتاة ذات الضفيرتين، فستانها الأبيض الذي تكاسل أن يغطي ساقيها النحيلتين، جوربها الأبيض الذي حُيك في نهايته دانتيل رقيق وحذاء بفيونكة صغيرة في مقدمته، أما عن وجهها فملائكي وعيناها تشهان في وسعهما عينيَّ ،

هى تشبهني كثيرًا جدًّا !

فلو وجدت صورة لي وأنا صغيرة لما اختلفت كثيرًا عن فتاة الحلم.

كان الحلم..

تقف ناظرة لي مقربة وجهها من وجهي حتى يكاد أنفها أن يصطدم بأنفي وبعتاب قالت:

" انتي نسيتيني خلاص !"

مَن تلك الصغيرة ؟

أتكون أنا ؟

أيجوز أن يحلم المرء بنفسه؟!

وبفضولٍ بحثت على موقع "جوجل" الإلكتروني عن تفسير لما رأيت ودخلت في متاهات تفسير الأحلام التي تعتمد في أغلبها على الرمز، فلم أجد رمزًا في حلمي سوى "البنت" ووجدت تفسيرها أنها دنيا جديدة أنا على وشك دخولها.

و لم يجنِ بحثي ثمارًا سوى تلك الكلمات القليلة، إلا أنني قرأت عن فتاة رأت في منامها أنها تحمل طفلة صغيرة نسخة طبق الأصل منها فإذا بالمفسر يقول لها إنها فتاة تحمل عبئًا نفسها بما معناه أنها "أد المسئولية" على حسب قوله، والله تعالى أعلم.

يا سيدي الفاضل لو كان الأمر بهذه السهولة لقلت إنني رأيت ما تعجز ذاكرتي عن تذكره، رأيت تلك النسخة الصغيرة التي تاهت داخل عقلي

بمعنى أصح: رأيتني !

جلست شاردة، منذ تلك الليلة وأنا لم أعد أنا، منذ سقطت تلك العصفورة على رأسي لتلقي حتفها فوق ستائر شعري! وشيء بداخلي تغيَّر.

أتعرف تلك البصمة التي تتركها روحك أينما ذهبت، ذلك الأثر الذي تتركه قدمك أينما وطأت الطرقات، أشعر أن ذلك كله اختلف.

وذلك الموضوع الذي حاولت تحاشيه مرارًا، تلك الفترة من حياتي التي لم أعد أتذكرها أصبحت تنغّص حياتي.

حتى «آمن» قد لاحظ انطوائيتي وعصبيتي في أمورٍ لا تستدعي أبدًا التعصب، وسألني اليوم "ما بك؟" إلا أنني أخفيت الأمر عنه.

لم أعرف كيف أصف ذلك الشعور، شعور الغربة الذي أعانيه، أن يغترب المرء عن ذاته، فلا يعد يعرف من هو !

وبنهاية حديثي معه اتفقنا على أن نتقابل غدًا لحضور مؤتمر يخص كشف لغز ظاهرة سقوط العصافير.

* * *

استيقظت وأثر حلم البارحة لا يزال عالقًا بين جفنيّ، ها قد أتت مرة أخرى بضفائرها ونظرتها الملائكية، تطلب منّي أن أتذكرها، و تصرخ "مدبدبة" على الأرض بحذائها وكأنها منزعجة لنفاذ الحلوى:

- بالله عليكِ تذكري..

ثم مدت إصبعها لتضعه على قلبي وقالت لي:

- أنا هنا !

فمددت يدي إلى قلبها وقلت لها:

- و أنا هنا !

* * *

أخذت "دوشًا" دافئًا محاولة أن أفيق لكن بلا جدوى، أخذت أحاول تذكُّر النسخة الصغيرة مني ولكني لم أفلح !

قررت ألا أذهب للعمل اليوم، هاتفتهم متعللة بأنني مريضة وسعلت سعلتين كوسيلة لإخفاء كذبي المفضوح.

جلست أمام الطاولة الخشبية والورق الأبيض بحوافه الحادة كسكِّينٍ – تجرح – تتراص على الطاولة، حاولت كتابة وصفات بسيطة تصلح لتلاميذي الصغار في الصف بخطٍّ أنيقٍ، كتبت:

" البروشكيتا "

شرائح الخبز المحمَّص مع الجبن، تصلح كمقبلات أو وجبة عشاء خفيفة.

يقطّع الخبز إلى شرائح سميكة

يضاف الزيتون، البندورة المفرومة و ملاعق من زيت الزيتون

ترش الموتزريلا على الوجه وتدخل الفرن لمدة 12 دقيقة.

وصفة بسيطة تعلمتها في أول يوم لي في مدرسة الطهي

مازلت أتذكر سعادتي بأول "شطيرة" صنعتها وحدي وتلك اللمعة في عيني التي تجاوزت لمعة النجوم في ظلمات الليل !

* * *

- أنا هنا !

* * *

obeikan.com

ارتشفت رشفة من القهوة..

قالوا إن القهوة هي رفيقة الوحدة، وكم كانوا خاطئين، فمع رائحة البن أتت رائحة عطره الرجولية، تضليعات كنزته الصوفية التي ضعت فيها ذات ليلة ونبرات صوته الخشنة.

وتابعت كتابة الوصفات.

* * *

وتقابلنا، حسبت أن اللهفة ماتت وسط كل هذا الجو السيء الذي يحيط بي، إلا أنني رأيته كأنها المرة الأولى والمرة الأولى في كل شيء دائمًا تكون صاخبة لا تُنسى أبدًا.

تبادلنا النظرات التي أخجل أن أفصح عن مكنونها بصوت عالٍ وتبادلت الأكفف السلام بعبارات مقتضبة وأحاسيس لم يسعها الكون.

المؤتمر كان ممتلئًا عن آخره، مصورين وصحفيين ومنصة مكسوة ببساط أخضر فتحسب أنها سُرِقت من حديقة مجاورة وتلك الأغنية التي اختاروها بعناية لتكون خلفية لحديثهم عن سقوط العصافير وياله من اختيار.

- هل تعرفين هذه الأغنية ؟.
- أغنية شهيرة جدًا تدعى "Volare".
- و ماذا تقول؟
- هي أغنية رومانسية، أنا أحبها جدًا.

– ترجمها لي.

ملت عليه حتى كاد رأسي أن يلامس رأسه، وقلت بصوت منخفض:

- Volare تعني أطير

أعتقد أن حلمًا مثل هذا لن يتكرر أبدًا

كنت أدهن يديَّ ووجهي باللون الأزرق

ثم فجأة حملتني الرياح

وبدأت أطير في السماء اللامتناهية

أطير

أغني

في زرقة السماء مطليًا بالأزرق

وأنا سعيد بالبقاء في الأعلى

كنت أطير وأطير سعيدًا

وأزيد في الارتفاع

بينما العالم يختفي ببطء بعيدًا

في الأسفل

وكانت موسيقى عذبة تعزف لي وحدي

أطير

obeikan.com

أغني

في زرقة السماء مطليًا بالأزرق

وأنا سعيد بالبقاء في الأعلى

لكن كل الأحلام تختفي في الفجر لأن

عندما يغرب القمر يحملهم بعيدًا معه

ولكنني سأستمر بالحلم في عينيك الزرقاء

التى هي زرقاء مثل السماء المزينة بالنجوم

أطير

أغني

في زرقة عينيك

وأنا سعيد بالبقاء هنا في الأسفل !

- «مشاعر» أنا...

لكن صوت ذلك الرجل الذي يترأس المؤتمر قاطعه، قال مقدمة لا داعي لها ثم تغيرت نبرات صوته لتصبح حادة ورفيعة جدًّا تصم الآذان:

– حدثت ظاهرة سقوط العصافير في عدة دول، لم تكن "إيطاليا" -بالتحديد "فينيسيا"- الوحيدة بل حدثت في أمريكا -تحديدًا في ولاية "اركنساس"- و"السويد".

الخوف سيطر على أنحاء العالم وقد حاولنا جميعًا معرفة أسباب نفوق كل هذه الأعداد من الطيور، ولأنها ليست جميعها من "نوعٍ" واحد فتم استبعاد الوفاة البكتيرية أو الجرثومية أو حتى التسمم بالمعادن الثقيلة !

و بعد أن قام العلماء بجمع رفات الطيور النافقة وقاموا بعمل دراسات تشريحية للطيور أثبت أن...

همست

- «آمن» أنا خائفة !

- لِمَ؟

وأكمل الرجل بذات الصوت بدون مراعاة همهمات الجميع.

- إن الطيور قد ماتت نتيجة صدمة قوية، ناجمة عن اصطدامها بأجسام صلبة مثل الأشجار، النوافذ وخطوط الكهرباء، وهذا الاصطدام أدى إلى إضرار في الأعضاء الداخلية للطيور !

أما هنا في "فينيسيا" فكان تفسيرنا للظاهرة أن الطيور نفقت خوفًا !

الخوف من الألعاب النارية والطلقات التي تستخدم للتخلص من الطيور المزعجة أدى إلى تحليق هذه الطيور ضعيفة النظر ليلًا بأعداد كبيرة وارتطامها بالبيوت والأشجا !

لم أستمع إلى بقية الحديث، أخذت حقيبتي وركضت...

تلك العصفورة التي ماتت أمام عيني، كان آخر ما شعرت به هو الخوف !

جلست في ركن مجاور للمكان الذي يُعقَد فيه المؤتمر واستسلمت للدموع التي ركضت على وجنتيّ وكأنها فتاة تركض للحاق بحافلة، سمعت صوت خطواته القلقة:

- «مشاعر»، أنا لا أفهم ما الذي يحدث لك ؟

حاولت أن أتكلم فخرج الكلام لا رأس له ولا ذيل:

– هع، ئفة، عصفورة ، (3) Scusa!

رفعت رأسي لأواجه أمواج الأسئلة التي لا أملك للأسف عليها جوابًا.

– «آمن» أنا...

– لا تقولي شيئًا، وأنا معك لن أذهب لأي مكان.

ابتسمت له ولم تكتمل ابتسامتي حين رأيتها من بعيد، صحت فيه:

– هذه الفتاة أحلم بها كل يوم !

– أين ؟

– هناك، تسير على المشى.

– لا أراها !

– كيف؟، إنها أمامنا ترتدي ثوبًا أبيض وتجدل شعرها في ضفيرتين.

– «مشاعر»، أنتِ بخير ؟

- ماذا تعني ؟

- لا أراها ولن أستطيع رؤيتها؛ لأنها غير موجودة أصلًا !

- أنت كاذب !، والآن أنا مجنونة ابتعد، ابتعد عني يا «آمن» !

ركضت حيث هي، تاركة ورائي حقيبتي ولكنني لم أجدها، أشرت على صدري وصحت بصوت عالٍ:

- أنا هنا!!! !

لكنني لم أتلقَّ جوابًا، تلمست الهواء من حولي وكأنني أتلمس بيدي سرابًا!

هل جننت ؟

أمسكت برأسي وقلت لـ «آمن» – الذي لحق بي- بحدة:

- أريد الذهاب للبيت.

و شهقت:

- الآن !

* * *

وفي البيت لم تكن حالتي أفضل، لم أبدّل الثياب، لم أتناول الطعام ولم أغتسل.

جلست على الأريكة المقابلة للمرآة الكبيرة التي تتوسط الحجرة، نظرت لصورتي التي انطبعت بها وكم كان وجهي متعبًا حتى تشعر وكأن سواد الليل قد تهادى تحت جفنيَّ !

obeikan.com

اقتربت من المرآة مدققة في ملامحي، اقتربت أكثر حتى لامستني برودة الزجاج وهنا. .

استحالت العبرات في عيني لبحيرة، رموشي استطالت لأغصان شجرة خضراء نبتت في أحد أركان المرآة، منحنيات وجهي كطريق خالٍ من المارة، وتلك الفرجة بين شفتي كفراغٍ أحدثته إحداهن في قلب رجل أحبَّها بجنون !

لامست الزجاج في هلعٍ، مسحته بكفّي لعلَّ شيئًا يتغير لكن لم يحدث شيء.

ما يحدث حقيقي وكأنها حياة ولدت بداخل المرآة، وكأنها لوحة ينقصها فقط خطوات بشري لتكتمل، وصلت لمسامعي دندانتها:

را را را

ترا ري را

ولمحت في ذلك الركن تحت الشجرة ضفيرتها المجدولة وعقدة حمراء تتأرجح بنهايتها يمينًا ويسارًا.. تهاويت على البساط الذي افترش الحجرة، لقد جننت !

جلست أمام المرآة أتابعها بعيني، كانت تتحدث بشغف عن حلم رأته بالأمس لشخص لا تظهر لي صورته ويداها تعبثان بحشيش الأرض، كانت تتحدث بسرعة مثلها مثل بقية الصغيرات، وبصوت تارة خجول منخفض وتارة عالٍ يصطدم بقطع السماء التي تسير فوق رؤوسنا فترتبك وتمطر !

فهمت من حديثها أنها رأت في منامها عالمًا يدعى "عالم سمسم" وأنها نسيت كلمة السر التي تفتح بها بابه، ذلك الباب الذي يقودها إلى عالم السحر لكن عصفورتها الصفراء حطت فجأة أمامها واقتحمت حلمها لتوشوشها بكلمة السر !

فُتح الباب ورأت العجائب، كل ما تحب: عروستها التي تساقط شعرها نبت لها شعر Hطول وأجمل، البالونة التي طيَّرها الهواء من نافذة حجرتها عادت، وحلويات، كل ما تشتهيه

كل الألوان، كل الفرحة !

وبسعادة ضحكت ثم قامت فجأة لتركض وراء فراشة كانت غافية على ظهر ورقة خضراء فأنتفضت هي الأخرى وركضت نحو الشمس.

تمحورت حياتي حول المرآة وتلك الفتاة الصغيرة التي أتت بكل ثيابها الملونة من خزانتها وقررت أن تأتي للسكن معي هنا !

أزحت الأريكة من المكان الذي اعتادت أن تسكنه لعدة سنوات لتصبح قريبة جدًّا من المرآة، رميت بكل ما يحيط بها حتى لا تتشوش الرؤية وأضأت كل الأنوار لأرى بوضوح. .

لأراها وهي تركض، تلعب، تكشر وحتى وهي تبكي.

عشت معها ورأيت في كل نَفَسٍ من أنفاسها "نفسِي" !

فردت ذلك الشال ليتخلص من طياته ويخبىء جسدي جيدًا عن البرد اللعين، ارتشفت من فنجان القهوة رشفتين ثم تركته لأن سخونته أحرقت لساني فصرخت ملتاعة:

"آآآي" !

فوجدتها في المرآة تنظر لي وتبكي، همست لها حتى لا يصل صوتي إلى الجيران فيتأكدون أن الجنون حتمًا أصابني.

– ما بك يا حلوة ؟

لم تنظر لي، كانت متكومة على سريرها حزينة جدًّا وفي يدها ورقة كُتِبَ عليها بخط طفولي

" عاوزة عصفورة"

يبدو أن أباها لم يلبِّ طلبها لهذا هي حزينة، وجدتني أقوم من مجلسي وأغني لها وأنا أدور حول نفسي:

" طيري طيري يا عصفورة

أنا مثلك حلوة صغيورة !"

إلا أنها لم تتحرك من مرقدها، فعادوتُ جلستي على الأريكة في يأسٍ، زارني النوم وأكرمته أشد الكرم، ذهبت معه بعيدًا جدًّا واستيقظت على صوتهم وكأن البيت قد تحول لمدرسة كبيرة امتلأت بالتلاميذ عن آخرها، كانوا واقفين في صفوف، وكانت هي وسطهم تقف في "دريل" مدرسي بني قصير وقميص أصفر متطلعة لأعلى في فخرٍ!

اتجهت بنظراتي لأرى ما تنظر إليه، وجدته "عَلَم" مثل ذلك الذي يجوب به «آمن» البلاد والعَلَم يرتفع لأعلى ليواجه الهواء بكبرياء ويرفرف. .

صاحوا جميعًا في نفسٍ واحدٍ:

"تحيا مصر !"

لم أتمالك نفسي وتلك القشعريرة التي سرت في شراييني، صحت معهم والدموع تتساقط مع صوت هتافي:

"تحيا مصر !"

* * *

لم أذهب للعمل اليوم، ولن اذهب غدًا.. حقيقة لم أعد أهتم، لِمَ يعنيني في هذا العالم الخاوي سوى تلك الصغيرة التي ملأت كل فجوة من فجواته بنظرة واحدة من عينها.

أغلقت هاتفي، فصلت جرس الباب وأطفأت كل الأنوار عدا نور تلك الحجرة التي لا يسكنها سوى الأريكة والمرآة.

كم من الأيام مضت ؟

لا أعلم !، لم أعد أحسب، شمس تذهب ويأتي وراءها قمر ساعات ويصاب بالتوعك فيذهب ليستريح في سريره فتحل هي الأخرى مكانه ببساطة !

وذات ليلة..

كنت أنظر إليها وأشاور على قلبي:

- أنتِ هنا !

ابتسمت بسعادة وانفرجت شفتاها لتتحدث لكن صوت الطرقات المجنونة المصرّة على الحصول على رد أفزعتها فركضت لتختبئ !،

حاولت تهدئتها لكني لم أفلح، لم أتحرك من مكاني، لم أبالِ بكل هذه الضوضاء ولا بصوته الذي تعالى في غضبٍ ثم في رجاء ثم في توسُّل

– بالله عليكِ، أنا أموت رعبًا.

«مشاعر» قولي فقط انك بخير !

فتحت له الباب، كانت ملامح الرعب تتراقص كغجرية مجنونة في نظرات عينيه.

– «آمن» !

نطقتها وسقطت على الأرض، حملني بين ذراعيه كأمير يحمل أميرته للمرة الأخيرة، أجلسني على السرير وأمرني بلهجة حانية بأن أستريح، ثم قبّل جبيني !

* * *

obeikan.com

الفصل العاشر

(مذكرات الخال)

- 5 -

علت الزغاريد الدار فانتفضت جدرانه راقصة نافضة عنها الغبار في سعادة !، واحتضنتني أمي بداخل جلبابها الأسود الذي امتلأ بطحين الخبز الأبيض وفاح من بين كرمشاته الدفء، ليت كل الأحضان ساحرة هكذا !

و صاحت:

"سيتزوج ولدي"

تأنقت بجلباب بني كخصلات شعر حبيبتي، تأبطت ذراع أمي مصطحبين معنا كل ما نملك "معزة" أخذت تتقافز في الحقول الخضراء وكأنها طفلة حظيت أخيرًا بنزهة.

اقتربنا أكثر، فَلاحت من بعيد دارها

واختلجت في القلب نبضة

تخصها هي

دونًا عن كل النساء !

* * *

obeikan.com

obeikan.com

الفصل الحادي عشر

تجولت بعينيَّ بين كلمات مقال سخيف يحمل عنوان كُتِبَ بخطٍّ عريض

"كيف تكتشفين خيانة زوجك؟"

وجدته في مجلة وضعت بإهمال على إحدى طاولات العيادة، جلست مدارية وجهي حتى لا يتعرَّف عليَّ أحد؛ لأن الصورة التي زرعها خالي مازالت بداخلي

" إن الذهاب إلى طبيب نفسي لا يعني سوى "الجنون"!"

تذكرت أحداث اليومين الماضيين وشردت بعيدًا بذهني إلى هناك. .

أنا أجلس على الأريكة كعادتي التي استمرت كثيرًا تاركة كل شيء خلفي، تاركة العمل وأصدقائي!

فلقد هاتفت مديرتي في المدرسة وطلبت منها إجازة طويلة، ألحَّت أن أمرّ عليها فقط لأنها تريد محادثتي في شيء هام وألحت عليَّ أكثر أن أطيِب، أما «آمن» فلم يتركني دقيقة واحدة، كان يطهو لي الطعام، يضع الوسادة وراء ظهري وإذا رآني شاردة لا يحاول أن يعيدني إليه !

في الواقع..

لقد ابتعدت عنه كثيرًا، كان يجلس بجواري ولا أشعر بوجوده، يلقي بنكات كثيرة لعلّي أبتسم، إلا أن تكشيرتي كانت تسبقني، وكان هو لا يكلّ ولا يمل ويحاول أن يحثني على الحديث

" ماذا يحدث لكِ؟"

إلا أنني لم أعطِه جوابًا سوى ذلك الجواب الذي لا روح فيه:

"لا شيء !"

لأنني رغم ابتعادي عنه خشيت أن يبتعد هو عنّي إذا علم أنني أرى فتاة ليست موجودة وأراها أين.. في مرآة حجرتي..!

يا للجنون !

لكن في عصر يوم مضى لم أستطع الكتمان أكثر بحت له بكل شيء، حكيت له عن تلك الليلة التي سقطت فيها العصافير، عن تلك العصفورة التي ماتت أمام عيني وكان آخر ما تركته في دنيانا هو "نظرة ذعر !"

* * *

ظننت أنه يوم الدينونة وأنا لم أتزوج بعد !

* * *

حكيت له عن ذلك الطبيب الذي أعطاني بطاقة تحمل اسمه ورقم هاتفه لأنه بنظرة متفحصة رأى أنني سأزوره قريبًا ولم تخب ظنونه؛ فأنا على وشك طلب مساعدته بالفعل.

والأهم أنني حادثته عن أنني لم أعد أتذكر طفولتي، لم أعد أسمع صوت خطواتي وأنا الثانية، نظرة فرح لرؤيتي "الزرافة" في حديقة الحيوان لأول مرة ووجع يدي من عصا تلقيتها لأنني نسيت كراس الواجب في البيت.

لم أعد أتذكر شيئًا وكأنني ولدت كبيرة بساقين طويلتين ونظرات غابت عنها البراءة !

* * *

ساعدوها. . ساعدوها..

* * *

وعندما انتهيت من الحديث، أحاطني بذراعيه القويتين

- «مشاعر» يا حبيبتي، يا أميرتي الضائعة.

تأوهت:

– لن تتركني ؟

– أبدًا، لكن يجب الذهاب للطبيب.

– لا أريد .

نظر لعيني وقال بلهجة مرحة:

– لماذا ؟، سيساعدك لتتذكري تلك الفتاة الصغيرة التي تتجول بداخلك وتبعثر محتوياتك هنا وهناك.

– أخاف يا «آمن» أن أتذكر !

لم يعلق على آخر كلماتي وتركني، لم يفاتحني أبدًا في ذلك الموضوع إلا أنني وجدت أني سأخسره ولأقرّبه منّي وأجعله يتخطى كل تلك الحواجز التي وضعتها أمامه منذ أصبحت مريضة وافقت على الذهاب للطبيب لكن وحدي !

* * *

ارتفع صوتها

– آنسة (مشـ.....

ولأوفِّر على تلك الممرضة المسكينة عناء نطق اسمي، أجبتها أنني المعنية ومشيت بخطوات فقدت الثقة بنفسها إلى الطبيب..

تذكَّرني على الفور ورحَّب بي كثيرًا حتى أثار ريبتي تجاهه مثلما فعل في أول لقاء لنا بالمشفى، اكتفيت بمصافحته وتجاهلت نظرات الفرح في عينيه، أخبرني في مرحٍ:

– كنت أعلم أنك ستأتين.

– دكتور، أنا مريضة، مشوشة جدًّا ولا أعلم ما بي، أريدك أن تساعدني لأن عالمي قد بدأ في الانهيار!

تبدَّل مرحه ووضع إصبعًا تحت ذقنه:

– منذ ليلة الحادث ؟

– نعم.

وقمت من مقعدي وتوجهت لأتمدد على الأريكة المخصصة للبوح، وجدته يضحك فالتفتُّ إليه مستنكرة، فأجابني سريعًا:

- أتعرفين، ليس من الضروري أبدًا الجلوس على الأريكة والتمدد، لكن الأهم هو أن تشعري بالراحة والأمان والأهم أن تثقي بي !

- أنا أثق بك يا دكتور لهذا جئتك و...

قاطعني

– أنا أتفهم ما تمرين به، وسأبذل قصارى جهدي لمساعدتك.

– شكرًا..

– هل نسيتِ أنه عملي؟!، والآن أريدك أن تحكي لي كل شيء.

حاولت عدم النظر إليه، نظرت للسقف الأبيض ولظلال الشجر التي افترشت الحائط؛ محاولة استراق السمع لتعرف حكايتي، سَرَتْ في جسدي رعشة امتزجت بتيارٍ باردٍ جعلني أرتعد.

– أنا أرى فتاة صغيرة ليست موجودة في عالمنا، لا أعرف من هي، كنت أراها في منامي كثيرًا تلعب، تضحك وتنظر لي معاتبة أنني نسيتها !

كنت أصحو والعرق يغمرني وبرودة تسري في جسدي.

كنت أراها في منامي كثيرًا، في بادىء الأمر كنت أرتعب منها ثم أحببتُها وكأنني لسنوات عاشرتها، أحببت نظراتها، ضفيرتها وثوبها الأبيض !

كنت أراها في منامي كثيرًا وراق الأمر لي، حتى إنني كنت لأترك حياتي بأكملها وأتمدد على السرير مغمضة جفنيَّ بشدة لأجبرها على النوم فقط لأراها وأطمئن على أحوالها، وكانت هي كلما رأتني تركض نحوي فرحة..

* * *

أشرت على قلبها:

- أنا هنا !

فمدَّت يدها لتخترق كنزتي الصوفية صوب قلبي:

– و أنا هنا !

* * *

صمتُّ قليلًا لأبتلع ريقي الذي غزته المرارة، نظرت له فابتسم مشجعني حتى أُكمل حكايتي، تنحنحت ثم أكملت:

– الفتاة تشبهني كثيرًا حتى لتحسب أنها "ابنتي" أو أنها "أنا" !

كل هذا ليس مهمًّا بالتأكيد، فأنا لم آتي إلى هنا لأنني أرى أحلامًا أعجز على أن أجد لها تفسيرًا، فلقد تطور الأمر ورأيتها ذات يوم في الطرقات.

* * *

- هذه الفتاة أحلم بها كل يوم.

- أين؟

- هناك، تسير على الممشى.

- لا أراها !

* * *

ركضت حيث هي ولكنني لم أجدها، تلمّست الهواء من حولي وكأنني أتلمّس بأناملي سرابًا، عدت لبيتي في هذا اليوم وجلست أتفحص ملامحي المرهقة في المرآة فرأيتها !

وكأنك تشاهد فيلمًا أحداثه مشوقة جدًّا وتلك الصغيرة هي بطلته، بطولة مطلقة فلا يظهر على الشاشة سواها.

تركت كل شيء يا (دكتور) وجلست أمام المرآة أتابعها !

وحكيت له عمَّا دارَ أمامي في المرآة عن "عالم سمسم"، "الحلوى الملونة"، "البالونة التي عادت"، "العروسة التي عاد لرأسها الشعر"..

عن "العَلَم" وعن صياحي "تحيا مصر !".

أخذت نفسًا عميقًا ناظرة له، شعرت وكأنه ذلك "العفريت" الذي يخرج من المصباح السحري وفي لحظات سيجد حلًا لمشكلتي لكن نظراته صدمتني بأنها تريد سماعي أكثر.

اعتدل في جلسته متكئًا على ذراعه:

- اسمعيني يا «مشاعر»، لن تكون هذه جلستنا الوحيدة بالتأكيد، أريد أن أراكِ عدة مرات حتى نعمل سويًا على فهم ما تمرين به، لكن أولى الخطوات نحو العلاج هي عودتك للعمل، لذلك الشيء الذي تحبينه وهو "الطبخ"، أن تري العالم الممتلئ من حولك بأناس يضحكون، آخرون يشكون حالهم وأصدقاء يساندونك بقتلهم ذلك الذعر بداخلك.

- حسنًا، سأفعل.

- أراك إذن الأسبوع المقبل.

لم أعلق، أخذت حقيبتي السوداء وخرجت من العيادة -متحاشية النظر لأيٍّ من المرضى الذين يجلسون باضطراب منتظرين دورهم- تاركة خلفي ورقة بيضاء خُط فيها" «مشاعر»

تخفي أشياء كثيرة !"

* * *

في طريقي إلى العمل تحاشيت النظر إلى البيوت التي امتلأت بجو عائلي أفتقده، والورد الصغير جدًّا الذي غفا ذات ليلة على الشرفة ليصحو واجدًا أن أجمل سنوات عمره قد نساها..

لقد كبر هكذا فجأة !

امتلأ الصف بالتلاميذ الصاخبة، صحت فيهم أن يهدأوا فنحن لسنا بصدد التعارف أو اللعب إنما التعلم.

كنا نصنع البيتزا وأصابني الشرود. .

" هل جننت؟

هل تلك الصغيرة التي أشاهدها هي أنا وإن كانت أنا فلِمَ الحاجة إلى طبيب نفسي مادمت قد تذكرت طفولتي؟

لماذا أنا مرتعبة إلى هذا الحد؟

يا إلهي الرحيم، ارحمني "

شممت رائحة الشياط تعبق الجو، وذلك الدخان الرمادي يقهقه بصوتٍ عالٍ

"لقد احترقت الصلصة !"

صاح أحدهم بحزنٍ:

– يا شيف، ماذا نفعل ؟

فتحت نوافذ الحجرة وأعطيتهم استراحة لمدة 15 دقيقة، جاءتني صديقة تسألني عمَّا حدث فالرائحة قد تسرّبت إلى صفِّها أيضًا، لم أملك سوى أن أبكي هامسة:

– لم أحرق يومًا الطعام، كيف أفعل هذا في مطبخي وأمام تلاميذي ؟

– لا عليكِ، لم يحدث شيء.

وطبطبت بيدها على كتفي، كالسحر سرت فعلتها هذه لروحي فقمت لأغسل وجهي بالماء البارد وأكمل الصف، لم أتذوق بيتزا سيئة جدًّا هكذا إلا اليوم وكأن محتوياتها مشوشة لا تعرف ما هي..

فخرجت من فرن الموقد ضائعة، لا تعرف طريقًا لسكنها، لا تعرف طريقًا لوطنها !

* * *

هاتفت «آمن» وعندما أتى صوته عابرًا الأثير إلى قوقعة أذني، ابتسمت

– اشقتقك حد الجنون !

– أصبحتِ مجنونتي الآن ؟

– لالا أنا مجنونتك منذ رأيتك على التلفاز، ذلك الطبيب أرهقني اليوم بشدة.

– ما رأيك لو أتيت وأنسيتك كل هذا في لحظات؟

– لن تستطيع.

– أستطيع أي شيء من أجلك يا «مشاعر» يا حبيبتي المجنونة.

وبعد وقت ليس بطويل آتى، جلسنا في ساحة "سان مارك" التي امتلأت بالحمام الأبيض والشمس الذهبية التي كانت قد غابت منذ دقائق تاركة لنا بعضًا من الدفء، تشابكت أيدينا فنسيت ما جئت لأقوله وما قطعته قدماي من كيلومترات لأجله !

سألني عمَّا حدث اليوم مع الطبيب، كانت جلسة بحق مرهقة وبصوت خافت حكيت له ما دار في تلك الجلسة:

– أشعر أن كل ما يحدث لي قد بدأ ليلة رأس السنة. وتحسست موضع الإصابة في رأسي وتألمت، أتعلم تلك البصمة التي تتركها روحك، أشعر أنها ما عادت هي !، أنا خائفة وضائعة!

حياتي تسير كما هي: أذهب للعمل، أقابل الأصدقاء لكن كلما تذكرت العصافير ارتعبت وأصابتني تلك النوبات التي لا يعد فيها نفسي قادرًا على الانتظام..

وعندما عرفت أن سبب موت العصافير هو "الخوف" من تلك المفرقعات التي أشعلناها نحن لنحتفل بعامٍ جديدٍ فرحين بنورها الأحمر الذي التمع في عتمة الليل غير عالمين أننا نقتل كائنات لا حول لها ولا قوة..

كم هم ضعفاء !

* * *

صوت رفرفة ممتزج بصراخ !

* * *

سارت على وجنتيَّ دمعتان، كأن روحي من الداخل خُدِشَت وعندما يُخدَش المرء وتفر دماؤه الحمراء من جسده، يضع قماشة لتمتص جراحه لكن كيف تصل القماشة إلى روحه دون أن تدميه ؟!

هل جُرحت حتى أدمى قلبها الوجع ؟، هل أصابها الضجر من حدود السماء واشتاقت لمكانٍ أبعد من السماء ؟، هل أصاب جناحيها التعب فقررت أن تكف عن الطيران؟ !

هل قررت هكذا ببساطة أن تنتحر!

* * *

وعندما سألني الطبيب:

- هل أحببتِ العصافير في صغرك ؟

- لا أعلم !

- حسنًا، هل امتلكتِ واحدة ؟

- لا أتذكر !

و زاد اضطرابي عندما تذكرتها

* * *

عاوزة عصفورة !

* * *

- حقًا لا أتذكر !

- كيف وكل منا بداخله حب لشيء ما منذ الصغر، فأنا مثلًا كنت أحب كرة القدم ومرات عديدة وقعت وأنا ألعب وحاولت ألا أبكي وجعًا على

obeikan.com

خدوشٍ نالت من ركبتي لأنني رجل!، كنت أميل لممارسة هذه الرياضة لأني أحبها وكانت غرفتي مليئة بصور لاعبين كرة القدم حتى إن أمي حسبت أنني سأكون لاعب كرة قدم مشهور ذات يوم، إلا أنني خيبت ظنها وأصبحت طبيبًا.

ضحكت من كل تلك البراءة، وقلت له بصوت حاولت أن يخلو من أي اضطراب:

– أريد أن أذهب !

لم يمنعني وبدا كأنه يتفهم ولا حاجة لقول المزيد من الكلمات التي لا داعي لها، وتوقفت عن الحديث..

أتاني صوت «آمن» كالقشة التي أنقذتني من أفكار كادت أن تسحبني بعيدًا إلى قاعٍ شديد الظلمة !

– أنتِ لا تثقين به ؟

– ما كنت ذهبت إليه ليساعدني.

– حسنًا .

وحاول تغيير الحديث عن الجلسة؛ لأنه شعر بتوتري فصاح بمرح:

- وماذا عن العمل يا "شيف"؟

- يا إلهي، مررت بأيام كابوسية، كم صلصة احترقت وطعام لو تذوقته كرهته على الفور، لكن مع الوقت تعلمت كيف أفصل بين حياتي الخاصة وعملي، فأعطيت لتلاميذي كل ما أملكه من شغف نحو الطبخ.

- رائع !

- وماذا عن حبيبي المشهور ؟

حدثني عن مقابلته لرئيس الوزراء وحديثهم عن أشياء عدة، وأراني على هاتفه خبر نُشر في جريدة مصرية يتحدث عنه وعن إنجازاته. .

كم كنت فخورة به، كم أعشق انتماءه وحبه لبلده..

ليتني مثله !

كان مازال ممسكًا بالهاتف، فرفع عينه حتى لامست عيني:

– أحبك !

* * *

عدت للمنزل مرهقة وسعيدة، نظرت نظرة خاطفة متوجسة إلى المرآة التي أصحبت منذ ذهابي إلى الطبيب خاوية، لا ينعكس عليها سوى صورة الأريكة المهندمة وصورتي إذا مررت من أمامها أتفقدها في أمل.

أما تلك الصغيرة فرحلت بلا رجعة، لعلّها تحظى الآن ببيت آخر وأسرة تسعدها أكثر مني !

وكم كنت خاطئة.

لمحتها تجلس ضامة ركبتيها النحيلتين إلى صدرها ورأسها منحنٍ لأسفل، اقتربت منها غير مصدقة أن بعد غيبتها الطويلة عادت !

اجتاحتني مشاعر كثيرة متناقضة، أفرح لرؤيتها أم أبكي على حالتي التي ساءت بعد كل تلك الجلسات، لامست الزجاج البارد بأناملي وسألتها دون الالتفات لحقيقة أنها ليست موجودة سوى في عقلي.

– ما بك يا حلوة ؟

لم ترد ولم ترفع رأسها تجاهي، سألتها عدة مرات إلا أنها لم ترد ففهمت أنها لم تعد تسمعني !

أفقدت السمع !، وتساءلت

" هل تعود بعد كل غيبة فاقدة شيئًا؟!"

ما كل هذا العذاب !

صدمت رأسي بالزجاج وشعرت أنني على حافة الجنون فهمست:

– كل هذا ليس حقيقيًّا..

ثم قمت عازمة على فعل أكثر شيء أكره أن أفعله الآن، جلبت ملاءة بيضاء كبيرة وغطيت بها المرآة وأنا أبكي.

– سامحيني، سامحيني !!

دفنتها !

دفنتها بداخلي حتى لا أراها، حتى لا يتهمونني أنني جننت بسببها، حتى أعود لحياتي الطبيعية وحتى لا تؤلمني رؤيتها تتألم..

دفنتها ناسية أن من يدفن أحدًا لابد وأن يقعد عمره بأكمله يبكيه ويطلب الغفران الذي لن يناله أبدًا مهما توسل !

* * *

obeikan.com

الفصل الثاني عشر

(مذكرات الخال)

- 6 -

عدنا للدار مكفهري الأوجه، وقررنا معًا ألا نتحادث في شيء.

كان يومًا مرهقًا ومثقلًا جدًّا بما يكفي.

عدت من دار حبيبتي بدون قلبي، زعاريد أمي وبدون تلك "المعزة" التي استحلت دارهم وقررت بأنانية مطلقة أن تتركني !

نظرت لأمي التي كفكفت دمعة، كادت تركض على وجنيتها الشاحبة، نظرة تحمل معاني كثيرة، نظرة عتاب للزمن، للقرية ولها !

لماذا كل هذا الفقر؟

لماذا تذهب الفرحة لتزور كل الدور حولنا، وعندما تقترب من دارنا تركض فزعة ؟

لماذا لا نمتلك سوى هذه الأرض التي لا تعرف كيف تطرح ثمرة ؟

لماذا تلك البقرة لا تكف عن تناول الطعام ؟

لماذا يا أمي ؟

ولماذا أحببتها ؟!

* * *

obeikan.com

obeikan.com

الفصل الثالث عشر

– دفنتها والذنب مازال يدميني !

– أنتِ أكثر شخص في هذا العالم يعلم أن هذه الفتاة وليدة خيالك وأنها ليست موجودة.

– أعلم.

– «مشاعر» أتثقين بي ؟

– ليس كثيرًا..

– و لماذا ؟

– لأنني أخافك بشدة، أخاف أن تكون ماهرًا لدرجة أن تستعمل سحرك وتداويني، تنتشلني من عالم إلى حدٍّ ما أحببته

– كيف يحب المرء عالم الوهم والمرض ؟

– لأنني فيه "ملكة" وتاجي مزيَّن بحبَّات الاهتمام اللولية، مَن أخذته الدنيا في رحلة بعيدة أعادته سريعًا لأجلي فأراه وأسعد، يجلس بجواري، يدثرني بغطاء حُبِّك من الحنان فأحظى بدفء طالما افتقدته، يحكي لي حواديت تأخذني لعالم لا يشبه عالمي البتة فأطمئن أن الحياة مازالت في عين أحدهم بريئة !، يطهو لي الطعام ومن لقيمات صغيرة

أشبع ويحتضني حتى يئنّ الحزن ويهرب من بين ضلوعي إلى كوكب آخر، أنا لست فيه !

كيف تأخذ مني كل هذا يا مداويني؟

كيف وأنا في أمسِّ الحاجة لكل هذا ؟

الوحدة باتت ترعبني

وتنهنهت !

ربت بيده على كتفي ووضع منديلًا أنيقًا أمامي يصلح لتغطية شعري عند دخولي أرضٍ مقدسة:

– أنتِ تفتقدين تلك الصغيرة، أليس كذلك ؟

صحت فيه وكل الألعاب النارية تندلع من بين جفنيَّ:

– ألم تفهم بعد، هذه الصغيرة هي أنا، إذا اختفت من حياتي ضعت، لم يعد هناك مفر هي " تسكنني"، مهما ابتعدت جاءتني من حيث لا أدري !

ملامحها هي ملامحي، ساقها النحيلة مشت على أراضٍ خطتها قدمايَ من قبل، ثغرها سيتمنى أن يذوق قبلة كتلك التي أتمناها سِرًا في الليل لوسادتي، حتى أصابعها النحيلة لامست دقات قلب يشبه قلبي بل إنه في الحقيقة قلبي أنا !

أنا ناسية مرحلة من عمري كنت فيها بريئة، وعندما رأيتها فهمت أنني أتذكرني فيها

هي أنا !

– إذًا لِمَ الحاجة لي، لطبيب نفسي ؟

فنكست رأسي وقلت في استسلام:

– لأنه من الغريب أن تعود الذاكرة على هيئة فتاة تظهر في مرآة الحجرة !

– إذًا تعالي نفكر بالمنطق ونرتب كل ما تمرين به..

أولًا:

أنت لا تتذكرين فترة مضت من عمرك وتربطين فقدانك للذاكرة بليلة رأس السنة حيث سقطت العصافير من السماء، أليس كذلك ؟

– نعم.

– ثانيًا -وهذا هو الأهم-:

إن شيئًا ما في تلك الليلة قد تسبب لك بصدمة نفسية كبيرة، أخذت معها بضع ذكريات من عقلك ومضت تاركة إياكِ في كل هذا التخبط والحيرة.

– لن أسترد ذاكرتي أبدًا أليس كذلك ؟

– لا، الأمر أبسط من ذلك.

من أهم الحيل الدفاعية اللاشعورية التي يلجأ إليها الإنسان عند مواجهة الشدائد هي"فقدان الذاكرة الهستيري" ولا يقصد بها مجرد

النسيان إنما عادة يفقد المريض ذاكرته فجأة، وأحيانًا يستمر هذا لساعات، أيام وقد يمتد لشهور !

ويتصرف المريض خلال هذه الفترة كأي شخصٍ سويّ، بدليل أنكِ كنتِ تذهبين إلى العمل وتقابلين الأصدقاء ولم تأخذي خطوة الذهاب إلى طبيب نفسي إلا عندما طال الأمر أو نصحك أحد المقربين.

كلامي صحيح؟

– نعم، أكمل من فضلك.

– عندما يفقد المريض جزءًا من ذاكرته فإنه يحاول ملأ هذا الفراغ بشخصٍ أو حدثٍ يصوّره له عقله، لكن في حالتك كنتِ قوية وأدركتِ تلك الحيلة بسهولة.

– يا إلهي، ساعدني !

– ما أريد معرفته، ما الذي حدث لك في تلك الفترة من عمرك وجعل عقلك يرفض الاعتراف بحدوثه..

ما الذي حدث يا «مشاعر» جعلك تودين بشدة نسيانه !

* * *

في البيت لم أكن أدري، هل من الواجب إن أريح نفسي ولو حتى قليلًا، أن يستقيم ظهري من انحناءاته فالحِمل إلى حدٍّ ما قد انزاح..

وأبتسم لعلَّ الشمس تشرق في أركان روحي التي باتت مظلمة جدًّا !

أم أقع على الأرض وأبكي ؟

لأنني ما عدت أعرفني، لا أعرف ماذا أريد في هذه الحياة ؟

من أنا ؟

من هذه الفتاة ؟

لماذا أنا وحدي ؟

وأين الجميع، أين الدفء وأين الوطن ؟

حاولت أن اتماسك، تناولت العقار المهدئ الذي وصفه لي الطبيب بعد جلسات طالت، ارتعاشة باتت لا تفارقني وجراح باتت أمامه واضحة وملوثة !

أيمكن أن تكون ذكرياتنا هي مصدر جراحنا؟

أن نأن صداقة قديمة، نزف حبًا ضائعًا ونموت متأثرين بنظرة أحدهم ذات ليلة !

هل من الممكن أن تقتلنا الذكرى ؟

و لا يجد الآخرون لموتنا أي سبب أو داعٍ؟

كل ما أمرّ به غريب. .

أنا اعشق العصافير خاصة الملونة، تلك الزقزقة تريحني وتبعث فيّ الطمأنينة وريشهم إذا لامسني وجدت بين طياته الفرحة المخبأة والسعادة الصافية التي لا يعكرها شيء !

كيف إذًا أعشقهم ولا أقتني واحدة ؟

مررت من أمام المرآة التي كسوتها بتلك الملاءة البيضاء اللعينة، أسرعت الخُطى إلى غرفتي، أخفيت وجهي في تلك الوسادة الحريرية وذهبت في نوم عميق..

بلا أحلام !

* * *

استيقظت وأنا أشعر أنني إنسانة جديدة، تصالحت مع هواجسي السوداء وقررت هكذا أن أنسى ما فات، أنا بالفعل ناسية لِمَ التنقيب ؟

أيكون وجعًا جديدًا يضاف إلى أوجاعي، أحيانًا من الأفضل للمرء أن تتحطم روحه ليفيق ويبدأ من جديد ترميمَ ذاته، تلوين جدران قلبه التي باتت شاحبة جدًّا بأي لون يشاء ويصطحب البسمة معه إلى كل الطرقات المؤدية إلى ثغره لعله يخطئ ذات مساء ويبتسم !

حينها يقويه الوجع ويصير إنسانًا جديدًا رائعًا..

لكن إن كان قد أصابني التحطم منذ سنوات ورحمة من المولى جعلني أفقد ذاكرتي وأنسى كل تلك اللحظات الأليمة

فلِمَ الذهاب لطبيب ؟

لِمَ التنقيب عن ذكرى؟

لِمَ كل هذه السادية ؟

فلتذهب كل الأوجاع للجحيم ولتصطحب معها ذكرياتنا، صوت بكائنا وبقايا ماضينا!

غسلت وجهي بالماء البارد، ارتديت ملابسي في عجالة، وضعت على شفاهي المكتنزة "روج أحمر" وتركت شعري حُرًا تتخلله أصابع الرياح وتبعثره.

كنت أشبه غجرية قررت أن تتوقف عن الرقص دون أن تكف عن أن تظل هي !

حررت العجلة من ذلك القفل اللعين، وذهبت للعمل ولم أكف لحظة عن إطلاق الجرس في سعادة لم أشعر بها من قبل !

الضوضاء جميلة وصوت الجرس يصم الآذان وأنا أضحك كالأطفال..

إذا كنت نسيت طفولتي فلِمَ لا أمارسها الآن ؟

أيحاسبني الناس والعالم بأكلمه مختلًّا عقليًا ؟

وعندما وصلت للعمل حار الجميع في أمري، وسمعت همساتهم التي رقصت في الأثير أمام أذني لثير فضولي وأستمع إلى حروفها التي تأنّقت أكثر من العادة.

- أتزوجت تلك المخبولة ؟

- منذ زمن وأنا لم أرها بهذه السعادة !

- تبدو كالأطفال !

- «مشاعر» تضع الروج الأحمر، لا أصدق !

ابتسمت لهم جميعًا، صحيح أن العالم مليء بالأوغاد والحمقى وقلة من طيبي القلب تحاول أن تتنفس الحياة القاسية جدًا، التفتّ وصحت فيهم:

– أنا سعيدة وكفى !

دلفت مسرعة إلى الصف، كان العدد قليلًا كالمعتاد في هذا الوقت من العام بسبب اقتراب الامتحانات، وأنا كنت مثل هؤلاء القلة الذين يلتمع الشغف في أعينهم الصغيرة التي لم تلوثها أبدًا خطوات الزمن !

كان شغفي وحبي للمقادير والمكونات ورائحة الخبز التي خرجت لتشتم النسمات من فتحة الفرن كل هذا جعلني في وقت الامتحانات أستذكر دروسي جيدًا حتى يوافق خالي أن أذهب لمدرسة الطهي وأقف بالمريول الأبيض لأضع البيض فوق الطحين وأبدأ بالعجن وكلّي ثقة أن الطحين الملتصق بأصابعي ما هو إلا طحين وقع في غرامي !

اندهشت المديرة عندما فاجأتني بوجودها في مطبخي وعجينة السكر منثورة على الطاولات على أشكال ورود صغيرة. .

حدجتني بنظرة ذات معنى:

– شيف، أريدك لحظة.

وسحبتني معها للخارج

- ما هذا يا «مشاعر» عجينة سكر؟

قاطعتها:

- نعم، عجينة سكر وكعكات صغيرة.

- ومنذ متى تصنعين في صفك الحلوى؟

- أردت أن أسعد هؤلاء الصغار فقط بقليل من الفرحة والسكر، آسفة!

- إذا أردتِ تغيير منهج الصف الخاص بك ووضع إضافات به، عليك الاستئذان أولًا.

- آسفة، مرة أخرى.

- لا بأس، أريدك في موضوع هام وتأخرت كثيرًا في طرحه عليك.

- حسنًا سأذهب عندك ريثما أنتهي.

- «مشاعر» يا بنيتي.

- نعم..

- أدامك الله سعيدة !

ابتسمَتْ وأنا كنت أحسبها لن تبتسم أبدًا، تابعتها وهي تسير بقدميها النحيلتين وتنورتها السوداء العتيدة حتى غابت عن نظري بدخولها ذلك الرواق الطويل.

عدت للصف وكانوا بحق سعداء، صنعنا كعك الفانيليا ووضعناه في الفرن ريثما ننتهي من إعداد الزينة.

ألم أقل لكم إن السعادة عدوى كالضحك، جرِّب أن يضحك شخص وسط عدة أشخاص جالسين، دقائق وتصيبهم عدوى الضحك ناقلًا

إياها أول الجالسين بترحابٍ شديدٍ، حتى إن سألت أحدهم على ماذا تضحك؟ قد لا يجد إجابة أبدًا !

والسعادة التي أصابتني اليوم، انتقلت إلى تلاميذي وتسببت في تلوُّن عجينة السكر وانتفاخ الكعك في الفرن بطريقة ممتازة.

قبّلتني إحدى الفتيات، وقالت مقلّدة أسلوب الكبار:

– هذه أطيب كعكة أتناولها منذ زمن.

أخذت أضحك وقلت لها:

– وكم من العمر تبلغ الآنسة ؟

– سبعة سنوات.

وصمتت لتلعق فتافيت كعك التصقت بأحد جوانب فمها الواسع:

– و نصف.

– كبيرة جدًّا !

تعاونّا على تنظيف المطبخ، ودعتهم ثم ذهبت إلى مكتب المديرة والفضول لا ينهشني على الإطلاق. .

فليكن ما يكن !

* * *

- ولقد اخترتك أنتِ

- أنا؟

قلت محاوِلة استيعاب كل ما سمعته وخرج من شفاها الخالية من مستحضرات التجميل.

– نعم. . مشكلتك أنكِ لا تدركين قيمة موهبتك، أنت موهوبة بالفطرة، في شرايينك تسري التوابل والمكونات، منذ زمن وأنا أقولها لك، شغفك للطبخ أثار حفيظتي ناحيتك ونبأني بمستقبل باهر جدًا، ناهيك أن جذورك الشرقية ولهذا اخترتك.

وعندما لم تجد منِّي جوابًا أو حتى تساؤل:

- يا فتاة سترين أخيرًا بلدك، لِمَ لا تبتهجي ؟

- أريد أن أفكر .

- مثلما تريدين، سأنتظر جوابك بعد أيام قليلة وأتمنى أن يكون بالإيجاب.

واستوقفتني:

- «مشاعر» إنها فرصة ومن واجبي أن أنصحك أن تغتنميها، إنها كالحلم، كالسحر، فكّري جيدًا !

* * *

obeikan.com

استقبلتني سلالم البيت وهي توجه إليَّ نظرات خبيثة كلما وطأت قدمي ذات الحذاء الأسود سُلمة، ضحكت في مكر !

– ما الذي يحدث هنا ؟

وعندما وصلت وجدته

"إنها هدية من السماء، شكرًا يا الله !"

واقف أمام الباب مرتدي سروالًا من الجينز الغامق، وكنزة في لون عينيه وعينيَّ العسليتين، ومن طول الانتظار استراحت شعرتان من شعره الأسود الناعم على جبهته وفي يده كان هناك "بوكيه" من ورد التوليب الأبيض !

عندما رآني لم يقل شيئًا، ما الحاجة لقول كلمات نقشت بوضوح في عينيه، اقتربت منه، أناملي المرتعشة ركضت لتزيح شعيراته السوداء عن جبهته وكأنني "باربرا سترايستند" في فيلم "The way we were " وانحنيت مقبّلة كل توليبة بيضاء كانت أقرب إليّ منه منذ لحظات !

همس في أذني وقد تقدَّم مني خطوتين:

– يومين كاملين !

– حسبتهم دهرين !، اقتربي فأنا أشتاقك حدَّ الوجع. وأخذ يدي برفق ليضعها على قلبه:

– هذه الدقة التي تتخبط هنا ملككِ وحدك !

– يا حبيبي !

- يا أميرتي !

أبعد يدي عن صدره رغم احتجاجي وقبّلها بسعادة:

- سُكر ..

ضحكت بخجلٍ وفي براءة شاورت على نفسي:

- أنا سُكر يا «آمن» !

- لا، رائحتك سُكر، لكن أنت أحلى من السُكر !

- أحبك !

فقال مقلدني:

- جدًا جدًّا جدًا !

(الاحتواء)

أن تحتويكِ كنزة مَن تحب فتبعث فيك دفئًا طالما تمنيت أن تحظى ولو لحظة به !

أن تصبح رائحته الرجولية هي رائحتك، صوته الخشن يختطف من أحبالك الصوتية صوتك الناعم فلا تجدين ما تنطقين به أمام نظرته !

وعندما يلامسك فإنه يراقص روحك المفعمة بالأنوثة على رقعة ملوَّنة لا تكفي سواكما !، فتتشجعي ولا تعود الدنيا المخيفة بعد الآن تخيفك !

ما أجمل أن يحتويك أحدهم !

* * *

obeikan.com

obeikan.com

الفصل الرابع عشر

(مذكرات الخال)

- 7 -

إنني أختنق !

حتى الهواء أصبح لا يكفيني، الحيز الضيق الخاص بي بات يضيق أكثر فأكثر! كلما تلفّت حولي اصطدمت بأحدهم !

النهار أمضيه ناظرًا للشمس داعيًا الله أن ينتهي سريعًا هذا الكابوس حتى لو ينتهي بالموت، لم أعد خائفًا، لم أعد أبالي ولم أعد أحتمل !

محاولين مواساة بعضنا البعض لكن نظراتنا، أصواتنا المليئة بالهلع وملابسنا التي بات فيها العرق الموجوع لعدة ليالٍ، جعلتنا نفشل!

تناولت سمكة غير ناضجة قذفها المحيط لحظها العاثر ناحيتي ولم أفرغ معدتي اليوم وكأنني اعتدت هذا الطعام !

بائس يتناول بائسة !

سمعت من يئنّ بجواري، حاولت أن أتحاشى النظر له وسؤاله "ما به ؟"

هنا يأتي على الكل لحظة يفقد فيها ما بقى من أعصاب، ترتعش معتقداته، تتذبذب طموحاته التي أوصلته إلى هذه المركب الخشبية التي قتلت كل ما به من أحلام !

obeikan.com

أخذت أدندن لعلي أغطي على صوته إلا أن أنينه قد ازداد في العلو، أمسك بملابسي وفي توسُّل قال بشفتين مشقوقتين:

- ماء !، أريد أن أشرب.

أمسكت بزجاجتي التي بقيت في قعرها بضع قطرات، لو أعطيته الماء متُّ أنا عطشًا وإذا لم أعطِه الماء ليشرب مات الآن !

الموت..

سيموت على كل حال، صحته المعتلة ستمنعه من أن يسبح مسافات طويلة عندما نقترب من الوصول إلى وجهتنا المنشودة!

خبأت زجاجة الماء وراء ظهري وأبعدت - بلا رحمة - يده المتسخة عن ملابسي وتركته ببطءٍ يموت أمامي حتى قمت بآخر واجباتي ناحيته مغمضًا عينيه !

وقتها فكرت أننا لو قذفنا بجسده إلى البحر سيتسع الحيز الخاص بي وأتنفس!

فقدت إنسانيتي!

أكلها السوس الذي ينخر في خشب المركب التي تحتوينا الآن !

تأرجحت بنا المركب يمينًا ويسارًا وسط بحر هائج جدًّا ينتظر مختبئًا في باطنه حوت يتمنى أن يصبح أحدنا وجبة اليوم له، جال بخاطري سيدنا يونس، وأخذت أردد دعاءه وكل جسدي يرتعش:

-لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين.

أمسكت بحقيبتي الجلدية، تأكدت من إن نقودي يلفّها ذلك الكيس البلاستيكي ليحفظها من الماء وفعلت مثل الآخرين دون أن أقف لأفكر لحظة؛ قذفت بنفسي إلى البحر !

كيف كانوا الفراعنة يقذفون بجميلات مصر إلى البحر !

لِمَ كل هذه السادية ؟

لِمَ كل هذه القسوة ؟

تعالت الصرخات، أنفاس حائرة تحاول بلا جدوى تعبئة الهواء وأيادٍ تضرب الأمواج كأستاذ يعاقب تلميذه الخائب !

ثم عمَّ الهدوء

ذلك الصمت المستفز الذي ينبئك بأن الموت اختطف الكثيرين ممن كانوا حولك !

سبحت كسمكة تحاول ملاحقة السرب الذي تاهت عنه في لحظة تأمُّل للمحيط الواسع !

شهقت، ابتلعت الكثير من الماء المالح، كدت أن أموت، كاد البحر أن يبتلعني وكدت أن أستسلم حتى لاحت لي الغابات من بعيد وتذكرت كل ما قاله لي ذلك النصاب

" إذا كنت محظوظًا سترى الغابات التي تطل من الشواطىء الإيطالية هنا واسمعني جيدًا، امشي في الغابات إلى أن تصل إلى صقلية، ستسير من ساعتين ونصف إلى أربع ساعات حسب سرعتك !

وعندما تصل، ابحث عن محطة القطار، واستقل أول قطار إلى ميلانو، هناك ستجد من ينتظرك !"

كم كان غير دقيق !

نسى أن يصف لي الألم والمعاناة !

نسى أن يخبرني أنني قد أفقد أشياء أثمن من حياتي نفسها في هذه الرحلة الشاقة!

نسى أن يخبرني أنني قد أفقد "نفسي"

وإلى الأبد !

* * *

obeikan.com

الفصل الخامس عشر

جلسنا متقاربين في مقهى ازدحم بالكثيرين لكننا لم نبالِ، فالروح متخمة بالكلمات وحانت لحظة البوح، أرادني أن أشاركه كل لحظة في هذين اليومين اللتين كنت غائبة عنه فيهما، أخذ يحكي، يحرك يديه ويضحك، تارة ترتسم الجدية على وجهه وتارة يملأ قسماته التأثر !

حدثني عن مقابلته لشخصيات هامة جدًّا بهدف دعم السياحة في "مصر" وتنشيطها والتقائه بإيطاليين كُثر عرف من خلالهم عادات وتقاليد هذا البلد، وأضاف:

– معلومات كثيرة جمعتها ستفيدني في كتابي الذي أسعى جاهدًا لإنهائه

– كتاب ؟

– نعم، فكرته أن أضع كل الأفكار الذكية التي خرجت من عقولٍ مختلفة في كافة بقاع العالم، عقول بشرتها بيضاء وأخرى سمراء، عقول لا تعرف العنصرية، فقط تفكر للأصلح وما ينفع البشرية، أردت أن يرتقي العالم ويرى الناس العالم من خلال كلماتي ومن خلالي !

– أنت سفير السعادة !

– لا، أنا سفير سعادتك فقط !

– «آمن» هناك أخبار جديدة.

– يا إلهي، حمدًا لله أخيرًا قررت أن تريحني هذه الفتاة وتتحدث.

ابتسمت ابتسامة متوترة لا معنى لها :

– هنا توجد مدرسة فندقية شهيرة جدًّا تُدعي "مدرسة إيلينا كورنارو".

– أكملي..

– قدَّمَتْ منحة للمتخصصين في مجالات الفندقة، ومنها بالطبع مجال الطبخ .

– آه، وهذه المنحة إلى أين ؟

– إلى المدرسة الفندقية في "مصر" وبالتحديد في محافظة الفيوم، قرية تط..

– قرية تطون يا «مشاعر»، أنسيتِ أن الفيوم محافظتي أعرفها أكثر مما أعرف خطوط يدي .

– رشحتني مديرة المدرسة لهذه المنحة وطلبت مني أن أفكر وأعطيها الجواب في أقرب وقت .

– و ماذا قررتِ؟

– لا أعرف.

– خائفة ؟

- حد السماء !

- يا صغيرتي، ألم تتساءلي لِمَ الفيوم ولِمَ هذه القرية بالتحديد ؟

- الموضوع بأكلمه إلى الآن لا أستوعبه .

- سأحكي لك الحكاية:

" بدأت الهجرة إلى إيطاليا منذ ما يقرب من عشرين عامًا وتحديدًا بداية التسعينات؛ حيث ذهب أفراد من مشجعي فريق كرة القدم المصري إلى إيطاليا ولم يعودوا، وهناك وجدوا عملًا واستقطبوا باقي أفراد أسرهم حتى أصبح كل بيت فيه من اثنين إلى ثلاثة أفراد في إيطاليا !

كانت قرية "تطون" تعاني من الفقر الشديد وبدأ يفكر شبابها همسًا في هجرة أراضيهم وديارهم الطينية طامحين إلى حلم "يوروهات" إيطاليا !

الكل كان في حالة ترقُّب، مَن سياخذ الخطوة الأولى وينفرط عقد الانتظار والفقر ويذهب الجميع بعده إلى مراكب الموت المتجهة إلى إيطاليا.

وفي ليلة باردة تسلل أحدهم عبر الحدود الليبية وهاجر إلى إيطاليا ولم يعد إلا بعد بضعة أعوام وأمارات الثراء تلوح في جيبه المنتفخ !

قاطعته:

- كيف هاجر؟ أكان الأمر بهذه البساطة ؟

– بالطبع لا، كانت هجرة غير شرعية بلا أوراق ولا تأمين على الأرواح، ناهيك عن إن الأمر كلَّف البعض بيع أرضه، داره، ذهب أمه وباع معه آخر حبات الصبر في أن يحتمل الحياة هنا .

بعضهم لم يصل أبدًا، كان بمثابة طُعم للأسماك الجائعة، البعض عاد في نعوش خشبية كئيبة، والبعض الآخر مقيدًا في سلاسل خشبية والأغلبية لم تعد أبدًا !

– يا للبشاعة !

– قرية "تطون" بلغ عدد أبنائها في إيطاليا ستة آلاف شاب، الكل سافر وهجرها، أصحبت قرية خاوية على عروشها، استقبلتهم إيطاليا محققة منهم أقصى استفادة مستغلة حاجتهم الشديدة للمال وفقرهم السارح في سمارهم الشديد !

– وكيف استفادت منهم، البعض كان غير متعلم أليس كذلك ؟

– أغلبهم كان لا يستطيع الكتابة ولا القراءة، لكن من قال إن تركيب السيراميك والبورسلين والأسقف يتطلب أن يكون المرء مفرقًا بين الباء والتاء؟!

أهم شيء هو الدخل الشهري الذي وصل للفرد قبل الأزمة العالمية إلى من ستة إلى سبعة آلاف يورو.

– أنت تقول منذ ما يقرب من عشرين عامًا ؟

– نعم..

– وكيف حال هذه القرية الآن ؟

– ستصدقيني ؟

– أحاول..

– اختفى الطوب الطيني وشيدت على أراضيها الفيلل والقصور والعمارات ذات الطوابق المتعددة وامتلأت بحمَّامات السباحة ومكيفات الهواء.

– لا أصدّق !

– أصحبت قطعة من إيطاليا، وكأن أحد المهاجرين أثناء عودته لبلده أخذ ساحة "سان مارك" معه !

قصات الشعر والملابس اصحبت على أحدث موضة، وبعض المتاجر اشتقت أسماءها من أسماء إيطالية فبنى الحاج فلان الفلاني متجرًا "جوهرة إيطاليا" والآخر أسمى متجره بـ"عصير ميلانو" وأشياء مثل هذه كثيرة.

– يا إلهي !

– ألم يحكِ لك خالك هذه الحكايات من قبل ؟

– أبدًا، كلما سألته كان يتهرب من سؤالي وكأنه يخجل أن يجيب.

– الأمر واضح كالشمس، إلا أن الشمس كما تنير البصائر فإن نورها قد يتسبب لبعض الناس بالعمى فلا يعودون قادرين على رؤية الحقائق !

– والمدرسة هل شيَّدها أهالي القرية؟، نقاط كثيرة لا أفهمها.

– نعم، تم إنشاء هذه المدرسة منذ عام 1995 وخرجت أول دفعة في عام 2000 لكن منذ عام – أي عام 2010- عرضت المدرسة الفندقية هنا في إيطاليا تطوير المدرسة وتحديث المطابخ والمعامل، لكن بدون موافقة رسمية، لكن من الواضح أنه سيتم عمل اتفاقية رسمية والتصديق عليها هذا العام.

– و هذه المنحة التي أعلنت عنها "إيلينا كورنارو" لماذا الآن بالذات؟

– لا أعرف، اشهر قليلة ونفهم، هذه القرية باتت تؤرّقهم هنا، معدلات الهجرة غير الشرعية تؤذي الجميع.

– «آمن»، ماذا أفعل ؟

– القرار يعود إليك، لكن هذه البلد بلدك وفي يوم من الأيام ستطأها قدمك!

– حسنًا.

نظر لساعته:

– يجب العودة الآن، لقد تأخر الوقت كثيرًا.

وفي استسلام أمسكت بحقيبتي وسرت بجانبه في صمتٍ.

* * *

الساعة الثانية عشرة..

تيك توك

تقلبت في الفراش متوسلة للنوم أن يأتي لكنه يأبى في شمم كأنه فتاة ترفض العودة لحبيب حطم قلبها ذات ليلة صيف !

الساعة الثانية عشرة وثلاثون دقيقة.

تيك توك

أمسكت بالهاتف وفتحت صورة «آمن» متطلعة عليها !

أيمكن أن يكون الحب شخصًا وكل ما فات كان مجرد شخوص تتنكر بالحب ولأنه تنكر فالشوق يذوب عند أول قطرة ماء صادقة وقمصان المشاعر تصبح واسعة مهلهلة فنصيح

" لا نليق ببعضنا البعض !"

وننكسر ونبكي كالبُلَهَاء لأنه عندما يأتي الحب بنفسه ليقع في هوانا ندرك كم كنّا حمقى حين أحببنا أقنعة !

الساعة الواحدة وخمس عشرة دقيقة

تيك توك

تأففت وقررت أن أغادر الفراش، ربما ساعدني كوب من اللبن الساخن على النوم، وعندما دخلت المطبخ بنوره الضعيف جدًا، أحسست بها !

مازالت هنا !

أتنفس عطرها الطفولي وأكاد أرى ضفائرها الطويلة، أكاد أسمع صدى خطواتها بحذائها ذي المقاس الصغير وهمست:

" حفظك الله أيتها الصغيرة أينما كنتِ!"

* * *

ابتسمت لها فقد صرنا مع الوقت أصدقاء، وكم من صداقات غريبة نشأت كتلك التي بيننا، صداقة بين مريضة ومساعدة الطبيب، لم نتحادث، جل ما حدث بيننا هو تلك النظرة التي تعني:

" هل أنتِ بخير؟"

فأجيبها بنظرة من تلك التي تعني: " أتمنى ذلك !"

وابتسامات تزاورت بين روحينا الصافيتين!

جاء دوري فقمت إلى الحجرة، طرقت الباب برفق ثم دلفت إلى الداخل وفي قرارة نفسي كنت قد قررت أنني لن آتي إلى هنا مرة أخرى، لتكن تلك آخر جلسة وليحدث ما يحدث..

لم يعد شيء يهم الآن «آمن» هنا وكفى..

فلنصنع معًا حياة حلوة لقلبينا وننسى كل ما فات !

قابلني الطبيب بمعطفه الأبيض ونظرته التي اعتدت إعجابها بي، لكن هناك أشياء من الأفضل ألا نعيرها أدنى اهتمام.

وعندما جلست على المقعد -المكسو بالجلد الأسود- أمامه، سألني:

- لن تستلقي اليوم على الأريكة ؟

- لن أحكي اليوم !، أريد التوقف عن العلاج ولا أريد مواصلة الجلسات.

انتظرت منه أن يثور ويحاول إقناعي بالعدول عن هذا القرار إلا أنه بقي صامتًا.

- لا أريد تذكُّر ما فات، أريد المضي قدمًا، أنا لم أحكِ لك عن «آمن» أنا أعشقه، هو نصفي الذي أريد مواصلة ما بقى من عمري معه.

وحكيت له بخجل فتاة تتحدث عن حبيبها لرجل بالكاد تعرفه وتحاول جاهدة إبقاء بعض التفاصيل لنفسها، كسر بأغلظ الأيمان أقسمت ألا تبوح به !

- وأين ستمضي حياتك هنا أم في "مصر" ؟

- لا أعرف.

- ألم تفكري أن هذا الرحالة الرائع سيأتي عليه يوم ويرتحل إلى بلد أخرى، ألم تفكري أن هذا اليوم قد يكون غدًا أو بعد غد !

- أرجوك توقف ..

- ارتدي منظارك يا فتاة وتعالي لترى الحقائق بوضوح.

- لا تفعل بي هذا.

- ماذا عن خالك ؟، حاولت كثيرًا أن أحثك على الحديث عنه وأن نحاول سويًا إيجاد طريقة للوصول إليه فكيف يتركك هنا وحيدة، كيف لا يهاتف ابنة أخته ولو مرة واحدة ؟

قلت بغضب:

– فلتسأله !!

– أنا أسألك، أحببت أن تكوني هنا وحدك، عندما رحل خالك لم يأخذ معه جواز سفره وحقيبته فقط إنما أخذ معه تلك القيود التي لسنوات أدمتك !

– ليس صحيحًا، أنا أحببت خالي.

– إذًا لِمَ لَم تفكري بالسفر إليه، أو حتى الاتصال به لتطمئني أن نفسَه مازال يسري في هذه الحياة؟، لم تجدي رقمه أليس كذلك؟

– نعم..

– «مشاعر» إن عقلك يلاعبك لعبة قاسية وأنتِ تخسرين فانتبهي ! استمعي إليَّ جيدًا

عودي لبيتك، فتّشي خزانة ثيابك جيدًا ستجدين رقم هاتف خالك مخبأ تحت بلوزة خضراء لم تعودي ترتديها !، ربما وجدت صندوقًا خشبيًّا مليئًا بصورك وأنتِ في سن صغيرة، تأكلين المثلجات، تضحكين، يداك ملوثتان بالوحل وصورة لك وأنتِ بزيٍّ مدرسي وتبتسمين ابتسامة تشع براءة! وبداخل هذا الصندوق ستجدين أشياء كثيرة تخصك، تخص الأماكن التي مررت بها في رحلتك في الحياة، وإن حالفك الحظ قد تجدينه، دفتر كتبت به كل شيء بخط مرتبك !

ولا تنسي التأكد أن هاتف المنزل يعمل وأن يدًا لم تقطع السلك الرمادي الطويل على غفلة منك !

- ومن يفعل كل هذا وأنا اعيش وحدي ؟

- ألم تفهمي بعد، أنتِ من فعل كل هذا !!

* * *

قالتها والسيجارة تتوسط أناملها.

– لا تذهبي إلى هناك مرة أخرى، كل رجل وسيم لابد وأن تجدي بعد سنوات وأنتِ تفتشين خزانة ثيابه -بحثًا عن روج أحمر أو نظرة إغراء نسائية أصابته في سهرة ما- الكثير من العيوب التي حاول مدارتها تحت بشرته وعيناه الواسعتان وضحكته الساحرة وهذا الطبيب الوسيم مختل !

عيب بسيط أليس كذلك ؟، لكن ليست كل النساء قادرات على التعايش معه !

– لكن «آمن» سيرحل، قلبي يحدثني أن هذا اليوم قريب جدًّا.

– يا «مشاعر» يا حبيبتي لا تعقدي الأمور، إن كان يحبك سيترك كل شيء من يده ويذهب معك ولو لبلاد العجائب.

– كلامك صحيح.

– وأنتِ أيضًا إن كنت تحبينه ستتركين حياتك بأكملها وتدعيه يخط لك واحدة من بدايتها ووقتها ستتركينني بمنتهى البساطة حتى إنك قد تنسين أن تلوحي لي وأنتِ راحلة للمرة الأخيرة.

– يا صديقتي الطيبة لن أفعل بالطبع.

– لا ستفعلين ويومها سأُذكِرك.

– يكفي كلامًا عنّي، حدثيني عن ذلك الرجل الذي اختطفك لعدة أسابيع، فتلك الشرارات في عينيك لا تعني سوى أنك وقعتِ يا كارهة الجنس الخشن !

* * *

مرت أيام كثيرة تحاشيت فيها علامات تناثرت هنا وهناك كذاك السلك الرمادي الذي أطلَّ طرفه من تحت سريري.. عنّي كلما فتحت خزانة ثيابي وابتعادي بذعر عن ذلك الركن المظلم الذي يحوي ملابسي القديمة وكأني أصدق كل ما قاله الطبيب.

أتعبني التفكير في أمورة عدة..

ماذا عن هذه المنحة؟ كنت دائمًا أسال خالي لماذا لا يعود للفيوم ؟

لماذا ينتظر أن يشعر أن قدميه تسيران نحو العالم الآخر جاذبًا إياهما ذلك النور الساطع، وقتها يعلم أن أنفاسه في دنيانا قد صارت تُعَد على أصابع اليد ؟

إلا أنني فهمت الآن، أنه بالرغم من الحنين الذي يفتك بالروح يومًا بعد يوم والشوق للدار الطينية ورائحة القمح المطحون والخبز الذي أتعب ظهر أمك وهي تخبزه لك فقط لتراك تأكل وسعيدًا !

عن ضحكة علقت في جلبابك القديم وبضعة جنيهات تحت بلاطة خبأتهم ذات يوم لأنك نويت الادخار لشراء "عجلة" وعن دمعة مازالت لم تجف وقعت فوق صورة لحبيبة كنت تعشقها بجنون الشباب !

عن "مصر" !

وتعاريج ملامحك التي لم يخنها النيل وسار فيها فقط ليؤنسك في غربتك التي اخترتها أنت بإرادتك !

بالرغم من أنك تريد العودة، إلا أن العودة مخيفة..

إلى حد أنه عندما تتشجع وتصعد تلك الطائرة التي تقلك إلى موطنك - الذي اشتاق إليك كأم افتقدت طفلًا من أطفالها- تكون قد تأخرت !

فالدار باتت مهجورة، لم يستقبلك أحد بقُبلة وحضن دافء على عتبة الباب كما كنت تأمل ولا الجدران تذكرتك ولا تلك الحبيبة أسمت أحد أبنائها باسمك تكريمًا لحب زهّر في قلبها منذ سنوات طويلة !

أخاف أن أتأخر

فلا تعود الأرض تتذكرني، ويستقبلني أشخاص سمعوا عنِّي ذات يوم، كل ما يكنونه لي هو بعض اللامبالاة وواجب الضيافة !

أخاف أن أعود، وأخاف أن أبقى هنا !

لا أرى خالي، تسجنني الجدران وأفقد كل الخيوط التي تربطني بجذوري وألا يعود لي وطن !

أن أظل طوال عمري غريبة، وحيدة وضائعة !

وقفت أمام النافذة وفي يدي كوب الشيكولاتة الساخنة، إن رائحة الشيكولاتة تصنع ضفائر من السعادة في شعور الفتيات الحزينات !

أغمضت عيني داعية الله أن يساعدني، ووقتها سمعت همساتها، صوتها الخفيض كان قادمًا من كل ركنٍ من أركان البيت

"نبضات القلب ستذكرك بي !".

* * *

obeikan.com

الفصل السادس عشر

(مذكرات الحال)

- 8 -

أمي الغالية

اشتقتك، اشتقت جلبابك الأسود والخبز الذي تصنعه يداك

اشتقت رائحة الدفء واشتقت لأحضانك !

أتمنى أن تكوني بخير وبصحة جيدة

لا تهملي نفسك يا أمي وخذي دواءك في مواعيده وأرسلي أختي إلى البريد، أرسلت لكم نقودًا كثيرة ستكفي إن شاء الله حاجتكم، وباركي لها عنّي «مشاعر» مولودتها.

كنت أتمنى لو أرى تلك الصغيرة إلا ان الغربة تمنعني !

وما يهون عليَّ كل هذا أن الفرج سيأتي قريبًا يا أمي ونفرح. .

سآتي لك بكل ما تحبين، سأشتري لك تلك "الغوايش" الذهبية، سنبدل باب الدار بواحد من الأبواب الخشبية التي كنا نراها عند جيراننا ونتمنى أن يكون لدينا مثلها !

لن تحتاجي لشيء طالما أنا موجود

obeikan.com

و لن نحزن مرة أخرى

يكفينا ما فات يا أمي

و تعالي لنفرح

ادعي لي كثيرًا فأنا أحتاج لدعائك

أراك قريبًا بإذن المولى

ابنك

* * *

obeikan.com

الفصل السابع عشر

تشجعت، مددت يدي تحت السرير، أمسكت بذلك السلك الرمادي الخاص بالهاتف وفتحت خزانة ثيابي ورميت بكل محتوياتها على الأرض حتى وجدت ذلك الصندوق الخشبي الذي نحتت عليه ورود صغيرة رضيعة مازالت لم تكبر !

حاولت فتحه لكن اصطدمت بقفل بارد غزاه الصدأ بلا مفتاح.

إذًا هناك سلك منزوع، هناك صندوق مخبأ تحت ثيابي وهناك فتاة مازالت تعبث في بيتي !

يا إلهي، ماذا فعلت بحياتي ؟

ركضت كالمجنونة نحو المرآة، نزعت الملاءة البيضاء التي كنت أغطيها بها وجدتها مرآة تتظاهر بأنها تعكس صورتي فحسب وصرخت:

" من أنتِ؟، اتركيني بحالي !"

وجلست على الأرض أبكي بهستيرية

"كيف تحتوي المُقل على كل هذه الدموع ؟"

هنا وجدت من يربت بيده الصغيرة على شعري، ارتعدت، خشيت أن افتح عيني وتصلبت في جلستي.. هنا سمعت صوتها يهمس حتى كدت لا أسمع شيئًا مما تقول:

- اقتربتِ جدًّا يا حبيبتي !

فتحت عيني فلم أجدها ولم يفتني أن ألاحظ على السجاد "فتافيت" من البسكويت.

* * *

شعور مريع ألا تعود واثقًا في نفسك، في يديك، عينيك ونومك

أن تخاف النظر للمرآة لتجد آخر احتل جسدك !

عقلك يخونك وأنت لا حول لك ولا قوة..

وأنت كدمية جديدة في يد طفل لن يلومه أحد عندما ينتزع شعرها، يمزق ثيابها أو حتى يكسر عنقها !

بل يضحكون ويصفونه بالطفل الذكي ويأتون له بدمية أخرى يمارس معها ساديته الطفولية.

من يعبأ بالدمية ؟

لا أحد!

اعترفت أنني يجب أن أعود للطبيب، لا يهم ماذا سيكون رد فعله خاصة بعد المسرحية الهزلية التي قمت بها الجلسة الماضية .

أمسكت بالهاتف:

- «آمن» أريدك أن تأخذني للطبيب.

- حبيبتي، ماذا حدث ؟

- أشياء كثيرة، هل وقتك يسمح أن أراك قبل أن تذهب للطبيب ؟

- أتسألينني ؟ أنت غريبة اليوم..

- آسفة..

- لالا، أنت مجنونة.

فضحكت:

- أنتِ حبيبتي، سآتي لك في الحال.

أنهيت المكالمة وجلست في الشرفة أنتظره.

جاءت عصفورة لتقف على السور وتنظر إلى عينيَّ، ابتسمت لها في حنوٍّ وأخذت أدندن لها بصوتٍ خفيض حتى لا أزعجها:

" يا حبيبي

أنا عصفورة الساحات "

ثم انقبض قلبي فسكتّ !

رأيته يسير قاصدًا بيتي، للحظة نسيت كل شيء..

ركضت على السُلم والتقينا على أول سُلمة

- أنتِ بخير؟

- أنا الآن بخير.

أمسك بكفّي وسرنا معًا، لا نعلم إلى أين ستأخذنا أقدامنا وأثناء سيرنا اصطدمت بنا الكثير من الأفكار السوداء، ظللنا صامتين حتى وجدنا أنفسنا في المكان الذي احتوى أول لقاء لنا حين وقعت عيناي عليه أول مرة !

حكيت له كل شيء عن الطبيب وآخر جلسة وكل ما حدث بعد ذلك، لم يعلق فقط قال إن الأمور ستكون قريبًا على ما يرام.

– «مشاعر» يجب أن تعودي لـ"مصر" .

– هذا رأيك ؟

– أنتِ كالزهرة التي انتزعها أحدهم من تربتها وزرعها في تربة أخرى وسط صبار واشواك وهي تناضل كل هذه الحياة الجديدة حتى تعيش. .

عودي لجذورك !

ابتعدت عنه خطوتين

– انا اعلم لما تقول هذا الكلام، لست بلهاء !

– لا افهم

– متى ستتركني يا «آمن» ؟

– لن أتركك..

وضعت يدي على صدره

– أنت تكذب..

بكيت كثيرًا، حاولت العثور على منديل ولكنني – يا للفضيحة - لم أجد، أنقذني هو بواحد وضعه على خدي لينقذ دمعة كانت مسرعة !

– يا حبيبتي كفّي عن البكاء، لن أتركك أنا فقط سأترك إيطاليا، حاون وقت الارتحال إلى بلدٍ أخرى، أنسيتِ إن هذه مهمتي ؟

– متى ؟

– نهاية هذا الشهر.

قلت محاولة استيعاب ما قاله منذ ثوانٍ:

– شهر فبراير ؟

– نعم، نهاية فبراير..

– وأنا؟

– سأعود من أجلك.

– و ماذا لو لم تعد؟

– علينا الذهاب للطبيب !

* * *

جلسنا أمام الطبيب واحتوى ثلاثتنا الصمت، وقفت بحركة فجائية ووضعت الصندوق الخشبي الذي وجدته في خزانة ثيابي وسلك الهاتف الذي لففته بشكل دائري وربطته بربطة شعري الزرقاء وتنحنحت

obeikan.com

- كم كنت دقيقًا أيها الطبيب، ماذا أفعل الآن ؟

- ومن فعل كل هذا برأيك ؟

- مَن غيري فعلها إذا كنت أسكن وحدي !

- أنتِ مقتنعة بما تقولين؟

هززت رأسي بعلامة الإيجاب – أي نعم -

شاعت الابتسامة على وجهه واشرق كما لو أن الشمس أعارته بعضًا من نورها الأصفر !

– «مشاعر» هايل، لقد اجتزتِ شوطًا طويلًا في العلاج.

– لا أفهم، لقد أدركت أنني مجنونة وقدمت لكِ الدليل !

– لا لقد أدركتِ أنك لست على ما يرام ثم قررتِ التفتيش حولك عن علامات تساعدك في التغلب على عقلك المضلل ووجدتِ ضالتك المنشودة.

تحاشيت النظر لـ «آمن» الذي اكتفى بمتابعة الحديث دون التعليق.

– أنا خائفة من نفسي !

– أنتِ فقط مشتتة وخائفة من معرفة ما يخبئه لك عقلك من ذكريات ويحاول منعك من الوصول إليها بشتى الطرق.

– و ما الحل ؟

نقل بصره إلى «آمن».

– سيد «آمن» .

فأنتبه الأخير إلى الطبيب وأولاه ابتسامة أدركت بسهولة أنها متوترة للغاية.

– أسف، شردت قليلًا..

– لا باس، كنت أود سؤالك هل سترحل عن إيطاليا قريبًا ؟

– نعم نهاية هذا الشهر.

– إذًا ستبقى وحدك يا «مشاعر»، ولأكون صادقًا وجود «آمن» معك ساعدك كثيرًا دون أن يدري أنه يقدِّم لك يد العون ودون أن تدري أن وجوده في حياتك فعل مفعول السحر، أما الآن سيرحل !

ستبقين أنت ومرآتك وصديقة لا تلتقي بها إلا كل فترة طويلة، قد تسوء حالتك وتعود تلك الفتاة أيضًا وهنا نضطر أن نعود لنقطة البداية بعدما قطعنا شوطًا طويلًا في العلاج !

– أنا لن أترك «مشاعر» أبدًا أيها الطبيب !

تاثرت كثيرًا حتى إنني أمسكت بيده لأحتمي بحبه من كل شيء !

– الحل بسيط أيها العاشقان، اقبلي تلك المنحة، اشتمي هواءً نظيفًا قريبًا من ذاكرتك واستمتعي بضمة من خالك حتى بقيوده التي حطمتيها في غيابه وستتجلى كل الحقائق أمام عينك !

عودي لوطنك ستطّيب تربة أراضي مصر الطيبة قلبك المتعب!

* * *

كان آخر صف لي في المدرسة، وددت تقبيل كل تلميذ وقف أمامي بمريوله الأبيض وإلقاء كلمات تشجيعية عليهم إن على كل واحد منهم أن (يعافر) ليصل لحلمه، أن يحطم القيود، يصنع البسمة من الأمل ويهدي لنفسه الدفء !

الحصول على لقب "شيف" ليس بالأمر الصعب لكنه يتطلب أن يظل الطباخ شغوف بمطبخه، يعرف تفاصيله عن ظهر قلب، مكان ذلك الغطاء، متى تستخدم المعلقة الكبيرة ويعرف ما هي نوعية التوابل المستخدمة في الطبق عندما يمر فقط من جواره !

عَن فرحتك بأول طبق غير محترق، أول كعكة لم تنسي وضع "البيكنج بودر" فيها وأول نظرة سعادة من شخص يتناول طبقك الذي أعدته وحدك !

عَن مناداة أحدهم لك "يا شيف" وعَن الدفء !

عَن طموح عالٍ كجبل واستطعت أنت بمثابرة أن تتسلقه وتغرس فيه عَلمًا يرفرف باسمك !

وعَن أمنية وردية حلمت بها ذات ليلة واليوم فقط تحققت !

بعدما انتهى الفصل فاجأني جميع من في المدرسة بكعكة كبيرة بيضاء عليها طائرة صغيرة كُتب على جناحها

" «مشاعر» سنشتاقك !"

كمّ الأحضان والقُبَل التي حظيت بها اليوم تكفي العمر بأكمله !

ولم يفت بعض الفضوليين سؤالي عن «آمن»، ذلك الرجل الذي أحضر بحضوره السعادة

فقلت لهم إنه مخبأ هنا

وأشرت على قلبي !

* * *

اقتربت من موعد منحتي إلي مصر واقترب «آمن» من خطوة رحيله، وها هي تلك الطائرة التي أرسلته كهدية لي عادت لتسترده !

ماذا أفعل إن كنت أحببت رجلًا أحبَّته قبلي الأرض الطيبة، السمكة الملونة والطائرة الورقية!

إلا أن عزائي الوحيد أنه اختارني أنا !

أرسلت له رسالة نصية

"آمن..

بعد نظرة الحب التي أمنحك إياها كلما التقينا، سلامي الذي يطول كأن يدك الكبيرة الملجأ الوحيد لكفّي وحكاياتي عن الدفء التي أسردها على مسامعك كلما احتويتني !

أريدك أن تتبع خطواتي التي سأمليها عليك، مفهوم

ارتدي معطفك سريعًا..

انزل السلم، وعند السلمة رقم 22 ستجد صندوقًا، سنتظرك هناك تحرسه فتاة رشوتها بكيس مليء بالحلوى، خذ الصندوق وانصرف !

افتح الصندوق أيها الجندي وحل تلك "الفيونكة" البيضاء من عقدتها، ارتدي ما تجده يدك بالداخل ولاقيني في ساحة "سان مارك" بعد ساعة من الآن !

وبعد دقائق رنَّ هاتفي بنغمة الرسائل.

- وكيف أجدك يا عصفورتي؟

- أنا من ستجدك يا حبيبي.

وأنهيت رسالتي بذلك القلب الأحمر الصغير.

في الطرقات التي تلونت وكأن علبة ألوان قد انسكبت فوق البندقية من يد فتاة شقراء، العصافير الصغيرة تحلق فوق رؤوسنا لأول مرة نحو الحرية، ومن مكان بعيد تأتيك سيمفونية تعزف لحنًا خاصًا بك يراقص روحك !

وإذا بالسعادة تفاجئك في كل خطوة تخطوها قدماك !

ازدحم الطريق بالكثيرين ممن يرتدون تلك الأقنعة، وضعت قناعي "المورتيا" وهو قناع مخملي تستخدمه معظم النساء هنا، قناع ملوَّن وضعت عليه فسيفساء زجاجية قانية اللون، زينت شعراتي بلؤلؤ ذهبي صغير وارتديت فستاني الذهبي الذي يضيق كثيرًا من الخصر ثم يتسع كفساتين زمن مضي حين كانت الفساتين تزن أطنانًا !

شهر فبراير في البندقية

عالم من السحر والشرارت اللامعة في سماء كل واحد منا !

إنه " كرنفال البندقية"..

يرجع لانتصار المدينة في حربها ضد "اكويليا" عام 1162 وعلى شرف هذا الانتصار يخرج سكان المدينة للاحتفال والرقص في ساحة "سان مارك".

توقف هذا الكرنفال طويلًا خلال عصر النهضة، ولكنه عاد بعد غياب طويل حينما قررت الحكومة الإيطالية إعادته حفظًا للتاريخ واستغلالًا بالطبع للسياحة لأنه يزور المدينة ما يقرب من ثلاثين ألف زائر يوميًّا للاحتفال بالكرنفال.

ومن أهم مظاهر الاحتفال هي الأقنعة وإخفاء الهوية للقضاء على المظهر الطبقي في البندقية، حتى إن قديمًا كان النبلاء يسيرون بحُرّية وسط العامة دون أن يتعرف عليهم أحد !

سرحت بخيالي كم من فتاة وقعت في هوى رجلٍ من النبلاء وعاشت في نظرته وعينه الضيقة التي تظهر بوضوح تحت قناعه الفاخر ثم اتضح في النهاية أن على كل ما تشعر به أن ينتهي؛ فكيف بفتاة فقيرة رثه الثياب أن تقتحم البلاط بحجة الحب، اللعنة على التفاوت الطبقي !

مسيرات ملونة، عالم يشع بهجة !

حاولت اختراق الحشود، اللعنة على متشابكي الأيدي

«آمن» ينتظر ابتعدوا قليلًا، أنا أيضًا لي حبيب ينتظر !

ومن بعيد لمحته بذلك القناع الذي أرسلته إليه، قناع من الجلد الأسود يخفي جزءَ وجهه العلوي وكأنه بطلٌ خرج من الأساطير فقط من أجلي !

هو يعرف بالتاكيد لما اخترت له هذا القناع بالذات؟ لأنه يشابه صورته بداخلي!

لن يتعرفني وسط كل هذه الأقنعة إلا أن رائحتي الخوخية ستهديه إليَّ

وقفت بجواره وهمست بصوت حاولت أن يكون رجوليًا:

– يا سيدي، أميرتك تنتظرك في ذلك القارب الأسود.

فالتفت إليّ ليختطفني من اللمة !

– أميرتي هنا..

تحركت يدي لتنزع القناع من على وجهي لكنه، أوقفني قائلًا بلجهة اختصرت كل ما يعتليه من مشاعر:

– لا تنزعي ذلك القناع يكفي ما يبدو من عينيك من فتنة !

ثم أمسك بيدي وسرنا نحو النجوم..

قلت له بصوت تلوَّن بالحمرة

– أتعرف، أمس لم أنم أبدًا، كنت كطفلة سعيدة بليلة العيد تنظر لثوبها الجديد وتتمنى قدوم الغد بسرعة حتى تستطيع ارتداءه ومن سعادتها لم تعرف حتى كيف تغمض عينيها؛ لأن ما تعيشه كان أجمل من الأحلام !

– أتعرفين يا حبيبتي أنك عيدي، ذلك العيد الذي يأتي مرة واحدة بالعمر، فيطيح بكل آلامك وذكرياتك السيئة ويهديك السعادة على هيئة إنسان.

كفتاة حلوة ترتدي عقدًا في نهايته عصفورة وأجنحة بيضاء تحاول إخفاءها تحت ثوبها الوردي لتداري هويتها الملائكية.

أنتِ ملاكي !

– «آمن» أنا أحبك !

فلمعت تلك النجمة هناك وفاقت أخرى من انطفاءتها التي طالت..

هل هذه هي السعادة التي دعوت الله أن يهديني إياها ؟

مددت يدي ونزعت قناعه الأسود فهمس:

– ماذا فعلتِ بي؟

– لا شيء ذهبت لعرّافة تقطن في آخر الدنيا، وقلت لها هذا الرجل الوسيم يعجبني استعملي بعض سحرك ليقع في حبي!

– بعض سحرها حمدًا لله أنها لم تستعمله كله وإلا حدث ما لا تحمد عقباه !

ضحكت بشدة فشاركتني سمكة كانت تسترق السمع من البحر لضحكتي!

قبَّلني بين عينيَّ ونظراته تسكنهم اللمعة، صدره يعلو ويهبط انفعالًا ثم قال بسعادة ابتسم لها الكون بأكمله حتى ظهرت غمازتاه:

" «مشاعر» هل تقبلين الزواج بي ؟"

* * *

obeikan.com

الفصل الثامن عشر

(مذكرات الخال)

- 9 -

* من صفحة شِبه ممزقة

وجدتها تجلس على الرصيف الباهت محتضنة ما تبقى منها، وفي عينيها الواسعتين أعتى علامات الهلع !

اقتربت منها وأنا لا أدري ماذا أقول؟!

جلست بجوارها، وعندما هممت باحتضانها صرخت !

ثم قامت كالمجذوبة، قطعت قطعة من فستانها الأبيض وركضت لتلف عصفورة صغيرة ملقاة بإهمال وسط الطريق كانت قد فارقت الحياة منذ لحظات !

حملتها والتفتت لتنظر لي، نظرة لن أنساها أبدًا !

نظرة عجوز..

نظرة تفوق عمرها بأعوام !

* * *

obeikan.com

obeikan.com

الفصل التاسع عشر

لقد حان موسم الهجرة

وآن للعصفورة أن ترحل !!

* * *

لعلَّ أركان البيت الدافئة وجدرانه المطلية بلون اللمة، ضحكات اهله الساكنة في قماش المقاعد ودموعهم التي جرت كالمطر على النوافذ والذكريات التي تخفت خلف الستائر الشفافة، لعلها تدلني إليَّ فأجدني !

وضعت رأسي على الوسادة - في ذلك السرير الذي ارتفع كثيرًا عن الأرض– وفكرت

كم كبر خالي، تلك التجاعيد التي وجدت طريقها إلى وجهه وارتجافة يديه عندما احتوى كفي

سألني بصوت قلِق:

– أطلتِ الغياب يا بنيتي.

فأجبته:

– كنت ضائعة يا خالي !

أغمضت عينيَّ لأول مرة شاعرة بالطمأنينة وكيف يشعر المرء بالغربة وهو في الوطن.

و عندما غفوت جاءتني في الحلم.

كانت غير بقية الأحلام، كانت تستقبلني على باب حديدي قائلة بسعادة:

"لقد عدتِ"

ثم فتحت الباب أكثر فرأيت مكانًا وكأنه الجنة نهر جارٍ، عصافير بيضاء تحلّق في جو يشبه وقت الغروب والضوء الذهبي يخبو وأناس كثيرةن يبدو أنهم يعرفونني يبتسمون لي. .

كنت على وشك أن أخطو أولى خطواتي إلا أن كل شيء قد أظلم.

صحوت على صوت أشياء تتخبط ببعضها البعض..

قمت كالمفزوعة من الفراش - على إثر الصوت المزعج - محاولة إيجاد مصدره، أخذ الصوت يعلو شيئًا فشيئًا ثم توقف عندما وصلت إلى "الكومود".

أصابني الذهول عندما فتحت أدراج "الكومود" الخشبي الثلاث، امتلئت جميعها بالمفاتيح، العشرات منها !

مفاتيح نحاسية باردة !!

تذكرت الصندوق الذي لم أجد أبدًا له مفتاحًا، ركضت نحو حقيبتي وأخرجته، جربت مفتاحًا وآخر، لم يحدث شيء حتى وجدت مفتاحًا فضيًّا كبيرًا وعاد الأمل لي بعدما رحل عندما سمعت تلك التكة التي تميز صوت فتح القفل.

استرقت النظر إلى داخل الصندوق واصدمت عيني بصورة لي معها !

* * *

ربما وجدتِ صندوقًا خشبيًّا مليئًا بصورك وأنتِ في سن صغيرة، تأكلين المثلجات، تضحكين، يداك ملوثتان بالوحل وصورة لك وأنتِ بزيٍّ مدرسي وتبتسمين ابتسامة تشع براءة !

* * *

أفرغت محتوياته بعصبية على الفراش

لمست بأناملي وجهي البريء في الصور ويدي التي تمسكت بيدها وتلك الصورة وهي تقبّلني، وأبي وأمي !

من قال إنني لا أشبه أمي، إن لي عينيها المتسعتين الثائرتين على كل شيء !

أين هم؟، مازلت لم افهم أي شيء.

وجدت في الصندوق أكياس حلوى فارغة، مشبك شعر ملوَّن وورق كثير امتلأ برسومات لعصافير صفراء تبكي !

وتحت كل تلك الأشياء التي تخصني وجدت دفتر مذكرات فتحته فوجدت اسم خالي بحبر باهت..

لا أعرف لماذا وضعت في ذلك الصندوق مذكرات خالي، بالتأكيد بها ما يخصني، ما يساعدني على التذكر..

أحسست أنني على وشك إيجاد ذاتي أو إضاعتها إلى الأبد.

وبدأت في القراءة

* * *

قطعت قطعة من فستانها الأبيض وركضت لتلف عصفورة صغيرة ملقاة بإهمال وسط الطريق كانت قد فارقت الحياة منذ لحظات !

* * *

وضعت يدي على قلبي الذي أفلت نبضتين باكيتين

و تذكرت

آه يا وجيعتي !

كنا نجلس في المقعد الخلفي أنا وهي والعصفورة

أبي كان يقود السيارة وأمي كانت كل دقيقتين تلتفت لتطمئن علينا، تطمئن أنها لم تقفز من النافذة، أنني لم أفتح قفص العصفورة لأحررها وأننا كففنا عن الشجار !

كان الجو حارًا جدًّا ففتحت النافذة وأخرجت يدي ليصطدم بخطوطها الهواء الراكض في الطريق.

اختلست النظر لأمي عالمة أنني أرتكب ما ستوبخني لأجله، فوجدتها تنهرني بنظرة تعني

"أدخلي يدك"

أدخلت يدي بغضب وراقبت عواميد النور التي تراصت على جانبي الطريق، وراودتني فكرة أضحكتني، كم يشبه عامود النور عصا المصاص – بطعم الكولا – الكبيرة

جاءني صوتها:

- على ماذا تضحكين ؟

- لا شيء.

اقتربت مني، عدلت من وضع فستانها الأبيض الذي أرتدي مثيله واقتربت أكثر واضعة رأسها على كتفي:

- ابتعدي، الجو حار.

نظرت لي بتوسُّل:

- الطريق طويل يا «مشاعر» .

- و ما ذنبي؟

- أريد أن انام.

- حسنًا نامي.

أراحت رأسها الصغير على ساقي وبعد مرور دقائق قليلة وقعت رأسي على صدري غافية

وصحوت على تحركات رأسها الكثيرة على ساقي، سألتني بصوتٍ ناعسٍ:

- تلعبي؟

فقلت بحماس ناسية التعب:

- ألعب.

كان أبي يتحدث مع أمي وكلاهما يضحكان، قال أبي:

- الأيام أثبتت أن اختيار أمي لك كان موفقًا جدًا.

obeikan.com

- لماذا ؟

- لأنني أحببتك بعدما اختارتك.

رسمت أمي التكشيرة على وجهها المستدير

- لم تكن تحبني من قبل ؟

ضحك قائلًا:

- لا تفهميني خطأ أنا أحببتك من قبل أن تختارك أمي لي وأحببتك أكثر بعدما اختارتك، أنسيتِ يوم. .

فوضعت يدها بسرعة على فمه

- شششش البنات هنا.

كنت أنا وقتها منشغلة برسم تعابير مضحكة على وجهي، وكانت هي تضحك بشدة وكأن أحدهم يدغدغها، ثم نتبادل الأدوار فتضع يدها على وجهها ثم ترسم وجهًا مرعبًا فأصرخ وكأنني خفت.

وكان صوت فيروز يخرج النسمات من الراديو:

" يا حبيبي

أنا عصفورة الساحات

أهلي نذروني

للشمس وللطرقات "

كانت أمي تدندن معها بصوت رقيق وهي تنظر لنا في المرآة وتبتسم وفجأة تحولت ملامحها لملامح مرتعبة وتبدلت دندانتها لصراخ..

"احترس"

إلا أن الوقت كان قد فات.

كان أبي صامتًا يحاول إيقاف السيارة التي كانت تركض كالمجنونة تلتهم خطوات العربات التي ارتسمت على الأسفلت وصوت عجلات السيارة تصرخ وكأنها تستغيث !

أمي تدعو بصوت عالٍ- زاد من رعبنا كلنا -، رفرفات جناحي عصفورتنا الصفراء وهي تمسكت بيدي بشدة ثم تراخت قبضتها..

السيارة

طارت في الهواء وترنحت قليلًا ثم هدأت وعندها هدأ كل شيء !

و حل الصمت.

لم أجرؤ على إبعاد يدي عن وجهي، كنت أبكي بصمتٍ وأرتعش من الخوف، نطقتُ بصوت خافت:

"امي!"

و تحفزت حواسي لتلقط أي صوت، أي حركة.

رائحة الموت تبعثرت في الهواء،

ذلك النفس الأخير الذي يكون له صدى مريع، النظرة الشاخصة التي تنظر إلى شيء وحدها تراه وتلك الارتجافة ثم الهدوء !

التف الكثيرون حول السيارة وألسنة كثيرة أفزعها المنظر فتلت ما تيسَّر لها من الأدعية ثم صاح أحدهم:

- الأسرة كلها ماتت، لا حول ولا قوة إلا بالله !

كنت أود أن أصرخ

"أنا هنا"

ألا أن شيئًا لم يخرج من حلقي الذي خنقته الصدمة وبدأ نشيجي يعلو ليصم الآذان.

- الصغيرة حية

التفت يد كبيرة حول خصري النحيل لتخرجني من السيارة وهمس الرجل

- لاتخافي، انتي بخير !

اجلسني على الرصيف على الطوبة السوداء وحاول برقة إبعاد يدي عن وجهي إلا أنني لم أكف عن الصراخ حتى سمعت صوت خالي ..

فتحت عيني ببطء لتلتقي بعينيه المصدومة

أشحت بنظري بعيدًا فلمحت على قارعة الطريق عصفورتي

ركضت ناحيتها لأنقذها قبل أن تدهسها السيارات المسرعة إلا أنها كانت قد فارقت الحياة ،

وماتت مثلهم جميعًا !

* * *

إن الذين يموتون في النهاية هم الأقل حظًا بالتأكيد !

* * *

وكأن الأرض الطيبة تمازجت مع الدفء والمطرة وصنعت صمغًا لصق قطع روحي معًا، فأصبحت بمرور الوقت متماسكة !

اعتدت الذهاب للمدرسة، انغمست في العمل وتابعت إعداد المطبخ والتأكد أنه مجهّز على أعلى مستوى ولا ينقصه شيء حتى ولو كان ملعقة صغيرة.

وانشغلت بتحضير منهج تعليمي متكامل يتضمن إعداد أطباق ساخنة وباردة، معرفة الوقت الزمني لتحضير الأطباق بدقة، كيفية تخزين المواد وتكلفة الأطباق.

حاولت تناسي أوجاعي، كنت أجلس كل يوم ومباني المدرسة البيضاء ذات القباب العالية تحيط بي من كل جانب، أنظر للعَلَم المرفرف في منتصف الفناء لأطمئن أنني هنا

في مكان عاش فيه أهلي وحبيبي «آمن»

رائحتهم في كل ركنٍ من أركان الأرض، هم معي وإن كنت لا أراهم، يساعدونني في عملي وإذا عبثت تزيح توأمتي بكفها الذي لم يكبر عبوثي، عندما يجافيني النوم يهمس أبي لي بحكايات كان يحكيها لي منذ زمن وتربت أمي على جبيني حتى أذهب في النوم، و «آمن» يقبّلني في الصباح فأبدأ يومي سعيدة.

حاولت الاتصال بـ «آمن» إلا أنني خفت ولم أعرف أبدًا ماذا أقول، ورضيت أنه ظهر بحياتي ولو لفترة قصيرة ترك بعض السعادة ومضى.

يكفي أنه مر بي خلال رحلته الطويلة.

* * *

في جلباب فضفاض نُقشت عليه رسومات بألون الطيف، حافية تلامس قدمي الصغيرة التربة المبتلة بالندى والشمس تنعكس على شعري الثائر فتجعل لونه في لون البندق، وقفت بين سنابل القمح الذهبية حرة، راضية، خالعة عنِّي عباءة الغرب التي كانت لا تناسبني ومنتمية لأرض خففت عنِّي واحتوتني !

كنت أنتظره..

وعدني بأن يأتي قريبًا ومن يومها وأنا أنتظره في ذات المكان

إلا أن اليوم يختلف، أشتم رائحة عطره الرجولية، وكأن السحب تعطرت بها وأرسلتها لي مع الهواء، وصوت أقدامه التي خطت أولى خطواتها في الطريق إلى روحي أسمعها مع كل تكة من تكات الساعة..

نظرت للجهة المقابلة فوجدته قادمًا من بعيد

وقف أمامي، فوضعت يدي على صدره

أحسست بالنبضة الخاصة بي !

نظرت طويلًا لعينيه وجسده الذي نحف قليلًا وتلك اللحية التي استدارت حول شفتيه، أما هو فكان صامتًا يتأمل «مشاعر» الجديدة النسخة التي وجدتها مختبية هنا.

«آمن»

- يا أجمل من أجمل بنات الكون، اشتقتك حد الوجع

تعالي إليَّ ولا تخافي

«مشاعر»

- قطعت شرايين أفكاري السوداء، فككت قيود ضفائري

و فتحت الشمس لأحلامي لتتنفس !

- قولي اسمي، ناديني..

- آمن. . آمن

- فصوتك تتعارك عصافير الكون كي تتغنى به !

وأخيرًا تحررتِ – يا حبيبتي – من الألم، الحيرة، الوهم والوجع !

نظرت له قائلة بسعادة ابتسم لها الكون بأكمله حتى ظهرت غمازتاه

" ما رأيكِ لو تتزوج عصفورتك ؟".

تمَّت

* * *

obeikan.com

اتفاقية بين مصر وإيطاليا

ديسمبر 2011

وقَّعت مصر وإيطاليا اتفاقيتين تعاوُن بدعم من المنظمة الدولية للهجرة تحددان سبل التعاون المستقبلي المشترك بين البلدين، في معالجة قضايا الهجرة غير الشرعية بين الشباب المصري.

وأوضح مكتب منظمة الهجرة الدولية في القاهرة في بيان اليوم "الخميس"، أنه في إطار الشراكة الثنائية الممتازة بين إيطاليا ومصر والجهود المبذولة لجعل الهجرة في صالح الجميع، قامت مدرسة الفيوم الفنية المتقدمة للسياحة متمثلة في د. محمود أبو النصر، وكيل وزارة التعليم ورئيس القطاع الفني والتجهيزات في وزراة التعليم المصرية بتوقيع اتفاقية للتعاون مع مدرسة إيلينا كورنار وللسياحة في لوسلو والتي يمثّلها مدير المدرسة د. ايلاريو.

ترسم الاتفاقية الأولى التي تم توقيعها، الأطر المستقبلية للشراكة بين المدرستين وتحدد مسئوليات كل منهما في ضمان تحقيق التنمية المثمرة للمشروع القائم حاليًا في مدرسة الفيوم

"التعليم والتدريب للشباب المصري"

وبدأت المنظمة الدولية للهجرة بتنفيذ هذا المشروع في الفيوم بالتعاون مع وزارة التعليم المصرية والمجلس القومي للطفولة والأمومة وبتمويل من وزارة العمل والسياسات الاجتماعية الإيطالية في عام 2009 لتطوير مدرسة الفيوم المتقدمة للسياحة في سبيل هجرة العمالة الشرعية من

مصر إلى إيطاليا، وذلك من خلال تحسين واقع التعليم وفرص التدريب للشباب وبنفس الوقت دعم مجتمعات الهجرة وبخاصة فئات الشباب المصري ليصبحوا قاعدة لبناء التنمية من خلال مشاركتهم الفعالة والفاعلة في النمو الاجتماعي والاقتصادي.

أما الاتفاقية الثانية التي تم توقيعها، فهي وثيقة للتفاهم بين وزارة التعليم المصرية ومحافظة المنوفية والمجلس القومي للطفولة والأمومة من جهة، والمنظمة الدولية للهجرة ومحافظة فينيسيا الإيطالية ومدرسة إيلينا كورنارو، حيث اتفقت الأطراف جميعها على التعاون في مجال قطاع التعليم والتدريب الفني لتعزيز فرص العمل وقابلية التوظيف بين الشباب المصري في سوق العمل المحلية والدولية المرتبطة بالسياحة والإدارة الفندقية.

* نقلًا عن جريدة اليوم السابع.

obeikan.com

اعتذار واجب للعصافير!

عَن حُلمٍ بأبوّة لم يكتمل، عَن فقد عصفورة لعصفورها، عَن قفص ذهبي سجن أحدكم ذات ليلة حرية، وأخيرًا عَن ألعاب نارية تسببت في إراقة كل تلك الدماء البريئة..

يعتذر بني جنسي لبني جنسكم ويطلب الغفران

عالمين بأننا لن نناله أبدًا!

سارّة

obeikan.com

obeikan.com

للتواصل مع الكاتبة

صفحة خاصة بكتابات الكاتبة على الفيس بوك :

"سارة وشدة على الراء"

فيس بوك:

https://www.facebook.com/sara.shamseldin.96

obeikan.com

جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناشر

Noon_publishing@yahoo.com

ت-02-35860372 011-27772007

obeikan.com